اعجاز القرآن الكريم

[١]

نظرة عامة على الإعجاز

اولاً. الإعجاز والحالات المشابهة له:

١. إدعاء الأنبياء وتحديهم للغير: يكمن الفرق بين الإعجاز وبين الكرامات وأعمال المرتاضين والسحرة وامثال ذلك في (الإدعاء والتحدي)، اي أن النبي يقول انه يعمل بإذن ربه عملاً لا يمكنكم الإتيان به، وهذا العمل الخارق للعادة يعتبر ميزةً ميّزني به الله تعالى حتى تصدّقوا أنني نبي.

٢. عدم ادعاء غير الأنبياء: الذين يعملون أعمالاً غير مألوفة لا يدّعون شيئاً ماعدا الأنبياء، فلو ادّعى أحدهم شيئاً لفقد مقدرته، كما هو الحالات في الكرامات العديدة التي صدرت من الأئمة المعصومين عليهم السلام او من خالص اولياء الله تعالى، فمما لا شك فيه أن الأئمة لن يدّعوا النبوة بل ولا اي شيء ليس لهم، اما بالنسبة لبقية اولياء الله فلو فرضنا أن أحدهم ترك طريق الحق فسيفقد مقدرته على الكرامة بلا شك.

٣. بعض الأمثلة: في الأمثلة التالية نشاهد أن كلّ مَن قام بأعمالٍ غير عاديّة لم يدّعِ النبوة أبداً.

ألف- آصف بن برخيا: كان له علمٌ من الكتاب، واستطاع بعلمه هذا أن يأتي بعرش بلقيس من سبأ الى النبيّ سليمان عليه السلام بطرفة عين. يقول تعالى: ﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠).

ب- بلعم بن باعورا: هكذا يذكر القرآن قصته: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٦).

وفي هذا الموضوع يروي الميزان الرواية التالية في المجلد ٨ صفحة ٣٣٧: في تفسير القمي في قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا﴾ الآية، قال: حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: أنه أعطي بلعم ابن باعورا الاسم الاعظم، وكان يدعو به فيستجاب له فمال إلى فرعون، فلما مر فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا، فركب حمارته ليمر في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها الله عز وجل فقالت: (ويلك على ماذا تضربني؟ أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟)، ولم يزل يضربها حتى قتلها فانسلخ الاسم من لسانه.

ج- سحرة فرعون: يذكر القرآن أنهم سحروا الأعين بسحر عظيم: ﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ (الأعراف:١١٦).

د- الهنود المرتاضون: هؤلاء المرتاضون يجهدون أنفسهم بأعمالٍ جسمانيةٍ مضنية جداً وطويلة الأمد تمتدّ عادةً الى عدة سنوات، ويحصلون في النهاية على قدراتٍ خاصة، إلا أنه لم يروِ أحدٌ الى الآن أن مرتاضاً هندياً ادعى النبوة او حتى أي نوع من الكرامة تتعلق بالله سبحانه.

ثانياً. هناك نوعان من اعجاز الأنبياء:

١. معجزات من أجل اثبات النبوة: كما في الحالات التالية:

ألف- عصا النبي موسى عليه السلام تتحوّل الى ثعبان: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ (الأعراف:١٠٧).

ب- عصا موسى عليه السلام تلتهم حبال السحرة وعصيّهم: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ (الأعراف: ١١٧).

ج- إنزال انواع العذاب على فرعون وملئه: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ (الأعراف:١٣٣).

د- النبيّ عيسى عليه السلام يصنع الطائر من الطين: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾ (آل عمران:٤٩).

هـ- النبيّ عيسى عليه السلام يشافي المرضى ويحيي الموتى: ﴿وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾ (آل عمران:٤٩).

و- ناقة النبيّ صالح عليه السلام تشرب ماء النهر يوماً كاملاً ويشرب جميع الناس في اليوم التالي: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ (الشعراء:١٥٥).

ز- رسول الله صلى الله عليه وآله يشق القمر: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾ (القمر:١).

٢. معجزات من أجل إنجاز بعض الأعمال: وكانت عادةً من أجل نجاة الأنبياء كما يلي:

ألف- النبي ابراهيم ينجو من نار قومه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء:٦٨-٦٩).

ب- لم يقطع السكين رأس النبيّ اسماعيل: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (١٠٧).

ج- انفلق البحر بضربةٍ من عصا موسى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (الشعراء:٦٣).

ثالثاً. إعجاز كل نبي ينتهي بساعته: معجزة كل نبي لا يراها إلا الأشخاص المشاهدون للمعجزة لحظة وقوعها، وتتحول بعد ذلك الى مجرد خبر يتناقله الآخرون، ولذا كان سهلاً على المعارضين أن يعتبروها أساطير وخرافات، ويستثنى من ذلك القرآن، فإن لنا فيه كلاماً آخر.

[٢]

رابعاً. الفائدة العملية للمعجزة: رغم أن المعجزة هي أفضل اثبات لنبوة كل نبيّ، ولكنها عملياً لم تتسبب في ايمان اكثر الناس، ماعدا القرآن الكريم:

١. لم تكن المعجزة سبباً لإيمان غالبية الناس: غالباً ما نرى أن اكثر الناس المشاهدين لوقوع المعجزة لا يؤمنون بنبيهم، مثل غالبية مَن شاهدوا عدم احتراق النبيّ ابراهيم، او رأوا ناقة النبي صالح تشرب الماء الكافي لبلد بأكمله، او أن عصا موسى تنقلب الى ثعبان عظيم، او أن عصا موسى تأكل جميع حبال السحرة وعصيهم، او رأوا رسول الله صلى الله عليه وآله يشق القمر. ولعل الدليل على عدم ايمانهم هو أن هدفهم من مطالبة الأنبياء بالمعجزة لم يكن قبول دعوة النبي والإيمان به، بل كانت محاولة لأن يهزموا نبيهم كيفما كان.

٢. ما هو سبب ايمان غالبية الناس: غالبية الناس كانوا بعيدين عن نبيهم بعداً مكانياً او زمانياً، فلم يكن باستطاعتهم رؤيته حتى يطالبوا بمشاهدة المعجزة منه، فالغالبية تؤمن إما بسبب التربية الدينية او متاثرين بتبليغ ديني يسوقهم نحو عقيدةٍ معينة، وإن لم يروا أي معجزةٍ طوال حياتهم.

٣. العقيدة توجب قبول المعجزة: كل مَن يعتقد بعقيدةٍ معينة يتقبّل كل ما يتعلق بعقيدته ومنها المعجزات المرويّة عن نبيهم، وحيث أن اكثر الأتباع لم يلتقوا بنبيهم الذي أتى بالدين وبالتالي لم يشاهدوا معجزاته أيضاً، فيمكننا القول بأن غالبية الناس يتقبلون المعجزة بناءً على قبولهم لتلك العقيدة، لا أن يتقبلوا العقيدة بناءً على قبول المعجزة.

٤. الهدف من المعجزة اثبات النبوة: عندما يعترض الكفار على اي نبيّ بأنه كيف يمكنهم العلم بأنه مرسلٌ من قبل الله، يلزم على النبي أن يردّ عليهم بالإتيان بعملٍ خارقٍ للعادة ليثبت به نبوته، فلو أن نبياً لم يؤدّ أن شيءٍ قبال كل مطالبات الناس بالمعجزة لشك به الجميع حتى أتباعه المؤمنين به، اي أن المعجزة تسدّ الطريق أمام منكرى النبوة.

الإعجاز الأدبي للقرآن

اولاً. لماذا كان الإعجاز الأساسي للقرآن ادبياً:

١. تناسب إعجاز الأنبياء مع الزمن: انتشر السحر في زمن موسى عليه السلام وانتشرت الأمراض في زمن عيسى عليه السلام وكذلك الأدب في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله، ولذلك كانت معجزات موسى تشبه السحر ومعجزات عيسى تشبه الطب، وكان القرآن درةً ادبيةً متلألئةً نادرة.

٢. رواية: نروي في هذا الصدد روايةً عن الإمام الرضا عليه السلام:

روى الصدوق قدس سره بسنده عن أبي يعقوب البغدادي قال: قال ابن السكّيت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: لماذا بعث الله عز وجل موسى بن عمران عليه السلام بالعصا ويده البيضاء وآلة السحر، وبعث عيسى عليه السلام بالطبّ، وبعث محمدا صلى الله عليه واله وسلم بالكلام والخطب.

فقال له أبوالحسن عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى لمّا بعث موسى عليه السلام كان الأغلب على أهل عصره السحر فأتاهم من عند الله عز وجل بما لم يكن عند القوم وفي وسعهم مثله وبما أبطل به سحرهم وأثبت به الحجة عليهم، وإن الله تبارك وتعالى بعث عيسى عليه السلام في وقت ظهرت فيه الزمانات[١] واحتاج الناس إلى الطب فأتاهم من عند الله عز وجل بما لم يكن عندهم مثله وبما أحيا لهم الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى وأثبت به الحجة عليهم، وإن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه واله وسلم في وقت كان الأغلب على أهل عصره الخطب والكلام (وأظنه قال: والشعر) فأتاهم من كتاب الله عز وجل ومواعظه وأحكامه ما أبطل به قولهم وأثبت به الحجة عليهم.

فقال ابن السكيت: تالله ما رأيت مثلك اليوم قط، فما الحجة على الخلق اليوم؟ فقال عليه السلام: العقل يعرف به الصادق على الله فيصدّقه والكاذب على الله فيكذّبه، فقال ابن السكيت: هذا والله الجواب[٢].

ثانياً. النضج التدريجي للإنسان طوال التاريخ: يتقدم الإنسان فكرياً مع مرور الزمن، وكمقياس لمعرفة التقدم الفكرى للإنسان يمكننا أن نقبس مدى تقبل الشعوب لدعوة الأنبياء.

١. قوم نوح: بعد حوالي ألف سنة من الدعوة الى الله الواحد آمن بالنبيّ نوح عليه السلام نفرٌ قليل بحيث أمكنه أن يركبهم في زاويةٍ من زوايا سفينته، ولعل هذا العدد القليل كانوا جميعاً من أبناء نوح وأحفاده.

---

[١] الزمانة كما في الجمهرة (عدم وجود بعض الاعضاء او تعطيل قواه) ولعلها مأخوذة من الزمان باعتبار انه مرض مزمن.

[٢] عيون اخبار الرضا عليه السلام ج٢ ص٨٦.

٢. قوم ابراهيم: لم يشر القرآن الى أن أحداً آمن بإبراهيم عليه السلام من بين القوم الذين ترعرع بينهم، إلا ما ذكرته الآية ٢٦ من سورة العنكبوت بعد الإنباء عن الصدام بين ابراهيم وقومه الكافرين: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾.
٣. قوم موسى: لا يتبين من القرآن عمّن آمن بموسى عليه السلام من غير بني اسرائيل إلا سحرة فرعون وهم نفرٌ قليل مضافاً الى مؤمن آل فرعون، وأما ايمان معظم بني اسرائيل فإنما كان لأجل المصالح، وعلى كلٍّ لم يؤمن بموسى عددٌ يُعتنى به من الناس.
٤. قوم عيسى: تذكر آية ٤٩ من سورة آل عمران معجزات عيسى عليه السلام، ثم تضيف: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران:٥٢). هذه الآيات تشير الى أن مَن آمنوا بعيسى أيضاً كانوا قليلين، فلما سألهم عمّن سيصاحبه الى الله لم يجب إلا الحواريون الذين أعلنوا ايمانهم، وعددهم حسب الروايات إثنا عشر شخصاً.
٥. النضج الفكري للعرب قبيل الإسلام: كانت الأمة الإسلامية هي الأمة الوحيدة التي آمن عددٌ كبيرٌ منهم بالنبيّ في أيام حياته ودعوته، والدليل على ذلك هو النضج الفكري للإنسان، ويضاف اليه طبعاً القوة الهائلة للقرآن كسبب رئيسي لاستسلام الناس له، فالعرب وهم اول مَن واجه الإسلام تقبلوا دين الله فوراً، وإن لم يكن بإمكانهم قبول بعض الأمور، وأهم تلك الأمور قبول ولاية امير المؤمنين عليه السلام باعتباره اماماً وقائداً بعد النبي صلى الله عليه وآله مباشرةً، فقبول مثل ذلك يحتاج إلى نضجٍ أكبر لم يكن متوفراً حين ظهور الإسلام، فتأجل الى زمن ظهور الإمام الحجة عليه السلام.

[٣]

ثالثاً. الثقافة لدى العرب قبل الإسلام:
١. انعدام العلم قبل الإسلام: قبل ظهور الإسلام كان الناس في الجزيرة العربية أميين جهلاء، فلم يكن هناك أي نوع من المعرفة، حتى أن بعض المدن كانت تفتقر الى شخصٍ واحد يستطيع القراءة والكتابة، وهذا ما جعل العرب يحترمون اهل الكتاب اي اليهود والنصارى احتراماً وافراً لأنهم يرونهم أصحاب علم، إلا أن علماء اهل الكتاب لم ينقلوا أي معلوماتٍ ذات قيمةٍ الى العرب، مستدلين على أن العلم لا يُعطى إلا الى أهله فقط، فكانوا يحرمون الجميع حتى أتباعهم من أدنى تعليم.

٢. الجهالة لدى العرب قبل الإسلام: الجهالة المطبقة على عامة الناس آنذاك تسببت في انتشار مختلف أنواع الأخلاق الفاسدة بين العرب، وإليك ثلاثة أمثلة من القرآن في الجهالة العربية:
ألف- وأد البنات: أي دفنهن وهن أحياء، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (النحل:٥٨-٥٩).
﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (التكوير:٨-٩).
ب- قتل الأولاد: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (اسراء:٣١).
ج- الظهار: وهو أن يقول لزوجته: «أَنتِ عَلَيَّ كَظهَرِ أُمّى»، ﴿الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (مجادله:٢).

٣. نمو النضج الأدبي للعرب: قلنا أن العرب كانوا أنضج فكرياً من أمم الأنبياء السابقين بسبب التأخر الزمني عنهم، كما قلنا أنهم كانوا محرومين من اي منهلٍ للعلم، ولذا كان لديهم نوعٌ من الفراغ الفكري، مما جعلهم يلجأون الى الأدب لسد ذلك الفراغ، ومن جهةٍ أخرى فإن الإنسان بحاجةٍ إلى الجمال، ولكن الطبيعة الصحراوية وخشونة الحياة في الجزيرة العربية كانت تفتقر الى اي نوع من الجمال ماعدا جمال المرأة، ولذا كان العرب

يبدأون قصائدهم دائماً بالغزل، وحيث أن هذا النوع من الجمال بعيدٌ عن الجانب الفكري تماماً اضطر العرب الى البحث عن الجمال في الكلام، فاستطاعوا أن يخلقوا أسمى آيات الجمال في الشعر والنثر والخطابة.

شبهة: لماذا تقول أن المعجزة لا تسبب الإيمان، فسحرة فرعون مثلاً او أتباع عيسى عليه السلام آمنوا بواسطة المعجزة.

الجواب:

اولا. النضج التدريجي للإنسان: يلزم أن نكرر موضوع النضج التدريجي للإنسان طوال التاريخ، رغم أن معلوماتنا عن تلك الحقب الزمنية البائدة قليلة جداً، ولعل المعلومات الوحيدة التي تفيدنا الآن تقتصر على الإيمان بالله تعالى، ويعتبر ذلك مقياساً جيداً للنضج الفكري، فعلينا أن ندرسه في الأحقاب الزمنية المختلفة حسب الترتيب التاريخي للأنبياء اولي العزم.

ثانيا. الأنبياء اولوا العزم: يذكر القرآن الأنبياء اولي العزم: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف:٣٥)، وهناك نقاشٌ تفسيرى في من هم الأنبياء اولوا العزم، إلا أن الاحتمال الأقوى هو أن المقصود الأنبياء العظام التالية أسماؤهم: نوح، ابراهيم، موسى، عيسى، ومحمد عليهم وآلهم السلام، ولعل سبب هذه التسمية هو أن شرائع هؤلاء الخمسة كانت عامة لجميع البشرية، حتى أن الأنبياء التالين لهم أيضاً كانوا ملتزمين بشرائع هؤلاء، دون أن يغيّروا من أحكام الدين شيئاً.

١. نوح عليه السلام: لم يذكر القرآن معجزةً لنوح النبي، وكان معظم الناس في زمنه كفاراً وعبدة أصنام، وظلوا على عبادة الأصنام حتى أغرقهم الطوفان، وهذا الأمر إنما يدل على أن عقول الناس في ذلك الزمان كانت لا تقوى على الإيمان بإلهٍ خلف ستار الغيب، ولعل دور طوفان نوح كان في تطهير المجتمع البشري بل الكرة الأرضية كلها من براثن الفساد المتفشي.

٢. ابراهيم عليه السلام: كان ابراهيم أول الأمر في بابل بالعراق ثم هاجر الى الشام اي الى فلسطين، وكانت له عدة سفرات الى الحجاز في جزيرة العرب، ولكن ليست لدينا أي أخبار عن ايمان الناس به، رغم ما شاهدوه من المعجزات مثل عدم حرق النار إياه، وانفجار نبع زمزم تحت رجلي ابنه اسماعيل، واما ولدا ابراهيم: اسماعيل في الحجاز واسحاق في الشام فقد كانت لهم ذرية كثيرة ومنهم الكثير من المؤمنين، اي أن الناس كانوا قد تقدموا فكرياً على قوم نوح الى حدٍّ ما، وإن كان هذا النضج لا يزال ضئيلا لأنهم مع تقادم الأيام خلطوا الشرك بالإيمان واتخذوا مركز الإيمان اي الكعبة معبداً لأصنامهم.

ويمكننا القول بأن الدور الأساسي لإبراهيم عليه السلام هو بناء المسجد، إذ يقال ان آدم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة أي المسجد الحرام ثم اندثرت آثاره فأعاد ابراهيم بناءها وعاونه اسماعيل عليهما السلام، ويقال مثل هذا القول عن المسجد الاقصى أيضاً بأن آدم بناه وأعاد إبراهيم البناء بعدما انمحت آثاره، وتوجد في المسجد الاقصى آثار عديدةٌ تتعلق بإبراهيم والأنبياء اللاحقين له، إلا أن المسجدين المقدسين ينسبان اليوم الى ابراهيم دون آدم، وكلتاهما قبلتان للمسلمين ومركزان للحج، اي أن إبراهيم هو المؤسس للنقاط المركزية التي تربط الإنسان بربه.

٣. موسى عليه السلام: ايمان السحرة يدل على أمر خاص، وهو أن مَن يبحث عن الهداية يفتح الله له أبواب الهداية، والسحرة أشخاصٌ متميزون كانوا يبحثون عن الحقيقة فاتجهوا نحو العلم، وحيث كان العلم في ذلك الزمن مقتصراً على السحر اقتناه هؤلاء، فلما رأوا معجزة موسى لقوا ضالتهم فيها فآمنوا به بطرفة عين ايماناً راسخاً لم يزلزله تهديد فرعون وبطشه.

أما المصريون فلم يؤمنوا بموسى، وأما بنو اسرائيل فقد اتبعوا موسى على أمل أن ينجيهم من ظلم فرعون دون أن يدخل الإيمان في قلوب غالبيتهم، ويتبين كفرهم في مواقف عديدة، ولكن ظهر بعض المؤمنين في

بنى اسرائيل من بعد موسى وإن كانت الأكثرية لا تزال ضعيفة الإيمان، وحتى هذه الأقلية المؤمنة ايضاً أصيبت بانحرافات فكرية، فيروي القرآن أنهم زعموا بأن عزيراً ابن الله. وبالتالي فالنضج الفكري لم يزل ضئيلاً لم تنفع معها المعجزات العديدة لموسى عليه السلام لحث الناس على الإيمان.
والظاهر أن الدور الأساسي لموسى هو الإيتاء بشريعةٍ كاملة، فالتوراة اليوم هي أقدم كتاب سماوي بين أيدي البشرية، ويبدو أنها اول شريعةٍ كاملةٍ نزلت من السماء، ورغم جميع البلايا التي أصابت التوراة طوال التاريخ إلا أنها لا تزال مملوءة بالأحكام والإرشادات الإلهية السامية.
٤. عيسى عليه السلام: رأينا أن الآية ٥٢ من سورة آل عمران تقول بأن عامة الناس لم يؤمنوا، فلم يجب دعوة عيسى عليه السلام إلا الحواريون، رغم ما شاهدوه من المعجزات العظيمة، ولكن بعد عروج عيسى الى ربه زاد عدد المؤمنين، ولم يزعزعهم الاضطهاد والقتل من قِبَل الحكومات الكافرة، بل إن الحكام بأنفسهم استسلموا في النهاية لدين عيسى، ولكنهم حرفوا الدين عن مسيره الصحيح فقد اختلقوا فيه الشرك الثلاثي، وجعلوا من عيسى الذي أتاهم بالتوحيد شريكاً لله. فهم كانوا إذن ناضجين فكرياً الى حدٍّ ما، إلا أن ايمانهم لايزال ضعيفاً لا ثبات فيه.
ولعيسى دورٌ في تغيير بعض الأحكام المشددة التي فرضها الله تعالى على قوم موسى تأديباً لهم لما رأى منهم من التمرد على الحق، ولذا نجد أن الإنجيل لا يحتوي على احكام إلا هذه الحالات المذكورة، فشريعة عيسى استمرار لشريعة موسى عليهما السلام.

[٤]

٥. محمد صلى الله عليه وآله: وهو النبي الوحيد الذي آمن به معظم الناس في زمن دعوته، فاستطاع أن يؤسس حكومةً قوية تحوّلت من بعده الى امبراطورية، رغم أن هذا النوع من فتح البلاد لم يكن دأباً للنبي، ويدل هذا على أمرين:
الأول- النضج الفكري للناس: حيث استطاعوا ببساطة أن يزيلوا الأصنام ويؤمنوا بإلهٍ لا يمكن رؤيته.
الثاني- قوة القرآن: والذي استطاع أن يرغم الأنوف الأبية للعرب صاغرين أمام عظمته.
ولكن الإيمان لم يكن قد وصل بعد الى ذروته المقصودة، فالعرب لم يقدروا أن يقبلوا امامة امير المؤمنين عليه السلام والأئمة من بعده، بل ظلت هناك شوائب تشوب أصل التوحيد لديهم، فهناك أكثرية مسلمة تعتقد بإمكانية رؤية الله تعالى في المنام، إذ يظهر لبعض أوليائه في النوم على شكل بشر والعياذ بالله، وأن جميع المؤمنين سوف يرونه بأعينهم يوم القيامة حاشاه جل اسمه وتعالى ذكره. وهذا نوع من عبادة الأصنام في أخف أشكاله، ونحن على أمل أن ترتفع هذه الأوهام الباطلة عند ظهور الإمام الحجة عليه السلام، حيث يصل الإنسان في زمن الظهور الى قمة نضجه الفكري.

رابعاً. القوة الأدبية الهائلة للعرب قبل الإسلام:
١. الأدب هو الميزة الوحيدة للعرب: قلنا أن الأدب كان الميزة الفكرية الوحيدة للعرب قبل الإسلام، فقد وصلوا فيه الى الذروة القصوى، فمضافاً الى الشعراء الفطاحل والخطباء البارزين، كان عامة الناس يعرفون الأدب ويتذوقونه، وإليك بعض ما يذكر عن قوة الأدب لدى العرب.
٢. الوصف في الشعر العربي: كنموذجٍ للقوة الأدبية للعرب، نرى أن الشعراء العرب أبدوا قوةً عظيمةً في وصف جمال الطبيعة والتعمق في كشف أسرار الخلق، فنجد مثلا طرفة بن العبد وهو يعدّ ثاني أكبر الشعراء لدى العرب يصف خلال ابيات عديدة من معلقته المطولة عجائب خلقة الإبل، وهذا يدل من جهة على دقته المتناهية في كشف خصائص الإبل، ومن جهةٍ ثانية يبيّن مقدرته العظيمة في وصف هذه الخصائص، ويزيد الكلام جمالا أنه على شكل شعرٍ موزون مقفى ويشتمل على انواعٍ من المحسنات البديعية.

٣. المعلقات السبع او العشر: هي سبع قصائد او عشر من أطول ما أنشده العرب، فكل منها يربو على مائة بيت وتعدّ من أفضل قصائد العرب، إذ يقال أن من شدة اهتمام العرب بها أنهم كتبوها قبل الإسلام بالذهب المذاب وعلّقوها على أستار الكعبة، وتسمى بعض هذه القصائد (بالسموط) أي السوار الذهبي الذي تعلّقه المرأة على جيدها.

٤. الدعاية بواسطة الشعر: سوق عكاظ كان من أشهر أسواق العرب في الجاهلية، حيث يجتمع فيه كبار الشخصيات العربية من اول شهر ذى القعدة الى العشرين منه. ومضافاً الى التجارة كان هذا السوق مركزاً اعلامياً هاماً وكأنه وكالة أنباء، يجتمع فيه الشعراء فيقرأ كل منهم ما أنشده، ويتجمع الناس حول الشاعر ليستلهموا من جزالة شعره. ويستغل الشعراء هذا الموقف فيمدحون بقصائدهم عظماء العرب ليحصلوا على الصلة منهم، واستمر هذا الوضع قرونا متمادية بعد الإسلام أيضاً، لأن الشعر كان من أفضل طرق الدعاية لكبار الشخصيات، وهكذا أيضاً نجد شعراء الشيعة يمدحون اهل البيت عليهم السلام دون أي طمعٍ في صلةٍ او مال، حتى يقال أن أكثر الشعر في المديح يخص امير المؤمنين عليه السلام.

خامساً. خضوع العرب امام الإعجاز الأدبي للقرآن: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأ القرآن في المسجد، فمَن سمعه فإما أسلم او شهد بأنه ليس من كلام البشر، وهذا ما أقلق زعماء قريش وإن كانوا بأنفسهم معجبين بالقرآن بشدة، ولكن مصالحهم لم تسمح لهم أن يؤمنوا به، وإليك أمثلةٌ في هذا الصدد:

١. إعجاب زعماء قريش بالقرآن: قصة استماع قريش إلى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم:

قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري أنه حدث: أن أبا سفيان بن حرب، وأبا جهل بن هشام، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، حليف بني زهرة، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلسا يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئا، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثانية، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا. فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا. حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود: فتعاهدوا على ذلك، ثم تفرقوا. [السيرة النبوية لابن هشام، أول من جهر بالقرآن- الجزء رقم ١. وانظر تفسير الحافظ ابن كثير عند تفسير قولِه تعالى: "نّحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذْ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتّبعون إلَّا رَجُلاً مّسحورا" (الإسراء:٤٧-٤٨)].

٢. لبيد بن ربيعة: هو أحد أصحاب المعلقات، أبوعقيل لَبيد بن ربيعة العامِري من عامر بن صعصعة. (توفي ٤١هـ/٦٦١م)، أحد الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية، أدرك الإسلام ووفد على النبي مسلما، ولذا يعد من الصحابة. وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً. استقر لبيد في الكوفة بعد إسلامه في سن ١٤٥ او ١٥٧ سنة، تسعون منها في الجاهلية وما تبقى في الإسلام. أرسل حاكم الكوفة يوماً في طلب لبيد وسأله أن يلقي بعضاً من شعره فقرأ لبيد (سورة البقرة) وقال عندما انتهى "منحني الله هذا عوض شعري بعد أن أصبحت مسلماً".

٣. عتبة بن ربيعة: هو ابو هند أم معاوية بن ابي سفيان.

قال ابن إسحاق: حدثت أن عتبة بن ربيعة وكان سيدا قال يوما وهو جالس في نادي قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطَة في العشيرة والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

قال: فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا الوليد، أسمعْ، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا.

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني، قال: أفعل، فقال: (بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ * وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ) ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرؤها عليه. فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك.

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم. [تاريخ ابن هشام ص١٩].

سادسا. مكيدة قريش لأيام الحج وسائر الأيام: كانت قريش يحذّرون الحجيج من رسول الله صلى الله عليه وآله مدّعين أنه يسحرهم بكلامه:

١. مكيدة وليد بن مغيرة: كان الوليد قد حضر الموسم، فاستغلّت قريش حضوره فاستشاروه بشأن دعوة محمّد (صلّى الله عليه وآله)، فأشار عليهم بتهمة السحر، لمّا لم يجدوا سبيلاً إلى رميه بجنون أو شعر أو كهانة.

قال: يا معشر قريش، إنّه قد حضر هذا الموسم، وإنّ وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا، فيكذّب بعضكم بعضاً ويردّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به. قال: بل أنتم فقولوا، أَسمع.

قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهّان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما بخنقه ولا تعالجه ولا وسوسته.

قالوا: فنقول شاعر، قال: وما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم. [إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأن يعقد خيطاً ثُمّ ينفث فيه، أي ينفخ ما يدمدمه من أَوراد]

قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟

قال: والله إنّ لقوله لحلاوة، وإنّ أصله لعَذق، وإنّ فرعه لجناه، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلاّ عرف أنّه باطل. وإنّ أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقوله هو، سحر يُفرّق بين المرء وأبيه وبين المرء وأخيه وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرّقوا عنه بذلك.
فجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم، لا يمرّ بهم أحد إلاّ حذّروه إيّاه، وذكروا لهم أمره. [سيرة ابن هشام: ج١، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩]

٢. طفيل بن عمرو الدوسي: وكان الطفيل بن عمرو الدوسي شاعراً لبيباً من أشراف العرب، كان قد قَدِم مكّة ورسول الله (صلّى الله عليه وآله) بها، فمشى إليه رجال من قريش وقالوا له: يا طفيل، إنّك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرّق جماعتنا وشتّت أمرنا، وإنّما قوله كالسحر يُفرّق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وزوجه، وإنّا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلّمه ولا تَسمَعن منه شيئاً.
وكانت قريش قد تخوّفت من إسلام الطفيل، الشاعر المُفلّق، وللشعر عند العرب مكانة سامية، فإذا أسلم اندفعت العرب وراءه.
قال الدوسي: فوالله ما زالوا بي حتّى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أُكلّمه، حتى حشوت في أُذُني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً، فَرَقاً من أن يبلغني شيء من قوله.
قال: فغدوت إلى المسجد وإذا رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قائم يُصلّي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلاّ أن يسمعني بعض قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: واثكل أُمّي، والله إنّي لرجل لبيب شاعر ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته وإن كان قبيحاً تركته.
قال: فتبعته إلى بيته، وحدّثته الحديث، وقلت له: فأعرض عليَّ أمرك، قال: فعرض (صلّى الله عليه وآله) عليَّ الإسلام وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قطّ أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمت وشهدت شهادة الحقّ، فرجع إلى قومه وكان داعية الإسلام، وأسلمت معه قبيلة دوس. [سيرة ابن هشام: ج٢ ص ٢١ ـ ٢٥، أُسد الغابة: ج٣ ص٥٤]

٣. منع الناس عن الاستماع للنبي: قال ابن عبّاس: كان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) وهو بمكّة إذا قرأ القرآن يرفع صوته، فكان المشركون يطردون الناس عنه ويقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه، قال: بالتصفير والتخليط في المنطق على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) إذا قرأ القرآن، قريش تفعله. [الدرّ المنثور للسيوطي: ج٥، ص٣٦٢ ـ ٣٦٣]
والآية التالية تشير الى ذلك: "وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ". (فصلت:٢٦)

سابعا. وليد بن مغيرة:

١. من هو وليد بن مغيرة:

(مكانته في قومه) من أغنى أغنياء قريش حيث ورد أنه بنى ركناً من أركان الكعبة الأربعة عندما قامت قريش بترميمها واشتركت باقي القبائل في بقية الأركان، وقيل أن قافلة تجارته تقدر بمائة بعير حتى يقال إنها لا تدخل من باب واحد بل من جميع أبواب مكة حتى تصل الجمال في وقت واحد، كانت قريش تسميه الوحيد أو وحيد مكة لأن قبائل قريش تكسو الكعبة عاماً وهو وحده عاما.

(بنو مخزوم وبنو هاشم) كان الوليد من بنى مخزوم. ولما نشبت حرب بدر الكبرى جاء الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة إلى أبي جهل ابن هشام بن المغيرة ولما اختلى به سأله قائلاً: "أترى محمداً يكذب؟" فقال أبوجهل: "ما كذب قط، وكنا نسميه الأمين ولكن إذا كان في بني هاشم السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة فأي شيء لبني مخزوم؟" فمن هذا يتبين أن بني مخزوم يرون أنفسهم في درجة بني هاشم.

(لو صبأ الوليد لتصبأن قريش) ذكر الإمام البغوي في تفسيره أن النبي في المسجد قرأ: "حم، تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ، غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ". (سورة غافر:١-٣) وكان الوليد يسمع قراءته ففطن له رسول الله وأعاد الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه فقال: "والله لقد سمعت من محمد آنفاً كلاماً ما هو من كلام الأنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وأنه يعلو وما يعلى عليه". ثم انصرف إلى منزله فقالت قريش: "صبأ والله الوليد وهو ريحانة قريش، والله لتصبأن قريش كلهم"، فقال أبو جهل: "أنا أكفيكموه". فانطلق فقعد إلى جنب عمه الوليد حزيناً فقال له الوليد: "مالي أراك حزيناً يا ابن أخي؟" فقال: "وما يمنعني أن أحزن؟ وهذه قريش يجمعون لك نفقة يعينونك على كبر سنك، ويزعمون أنك زينت كلام محمد"، فغضب الوليد وقال: "ألم تعلم قريش أني من أكثرها مالاً وولداً؟ وهل شبع محمد وأصحابه ليكون لهم فضل؟" ثم قام مع أبي جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم: "تزعمون أن محمداً مجنون فهل رأيتموه يحنق قط؟" قالوا "اللهم لا"، قال "تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه تكهن قط؟" قالوا" اللهم لا"، قال "تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب؟" قالوا لا، فقالت قريش للوليد: "فما هو؟" فتفكر في نفسه ثم نظر وعبس فقال: "ما هو إلا ساحر، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه فهو ساحر، وما يقوله سحر يؤثر". فنزل فيه قول القرآن في سورة المدثر: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ، فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ، ثُمَّ نَظَرَ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ، إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ، سَأُصْلِيهِ سَقَرَ. [تفسير البغوي، سورة المدثر، تفسير قوله تعالى: إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ].

(النتيجة) إن الوليد بن مغيرة كان مثل فرعون في قومه، فكما أن الله تعالى أرسل موسى عليه السلام اول بعثته الى فرعون، لأنه لو آمن فرعون لآمن قومه جميعا، كذلك رأينا كيف أن قريشاً خافت من أن يصبأ الوليد من دينهم فقالوا: (لتصبأن قريش كلهم)، وهذا يدل على مكانته الخطيرة في قومه، حتى أن القرآن هاجمه في سورة المدّثّر أشد الهجوم خلال عشرين آية كاملة، فلا تجد في كتاب الله رجلاً خصص له تعالى هذا الحجم الكبير من الهجوم في مكان واحد، فإذا أضفنا الى ذلك الإشارة اليه في القرآن بغير هذا الموقف لعرفنا أهمية هذا الرجل، فلعله يمكن القول أنه لو أسلم الوليد لتغير تاريخ الإسلام من أوله ولآمنت مكة برمتها، ولم يلزم أن يهاجر النبي عنها ليجعل غيرها من البلاد منطلقاً لنشر الإسلام.

[٦]

٢. آيات نزلت في وليد بن مغيرة:

(الآية الأولى) الميزان ج١٨، ص١٠٦، في تفسير قوله تعالى "وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ": وفي الاحتجاج عن العسكري عن أبيه عليه السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان قاعدا ذات يوم بفناء الكعبة إذ قال له عبد الله بن امية المخزومي: لو أراد الله أن يبعث الينا رسولا لبعث أجل من فيما بيننا مالا وأحسنه حالا فهلا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولا، على رجل من القريتين عظيم: إما الوليد بن المغيرة بمكة وإما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف.

أدرك الوليد بن المغيرة بعثة الرسول ولم يسلم، بل قال مستنكراً عدم نزول الدعوة عليه هو، وهو كبير قريش: "أينزل على محمد وأترك، وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد

ثقيف، فنحن عظيما القريتين"، فأنزل الله فيه: "وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءانُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ". (الزخرف:٣١) [الموسوعة العربية: الوليد بن المغيرة المخزومي]

(الآية الثانية) الميزان ج٢٠، ص٨٥، قوله تعالى: "ذرني ومن خلقت وحيدا" كلمة تهديد وقد استفاض النقل أن الآية وما يتلوها إلى تمام عشرين آية نزلت في الوليد بن المغيرة.
الميزان ج٢٠، ص٩٢، في قوله تعالى ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾. (المدثر:١١-٣٠):
في تفسير القمي في قوله تعالى: "فإذا نقر في الناقور - إلى قوله - وحيدا" فإنها نزلت في الوليد بن المغيرة وكان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، وكان من المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقعد في الحجر ويقرء القرآن، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة فقالوا: يا أبا عبد شمس ما هذا الذي يقول محمد؟ أشعر هو أم كهانة أم خَطْب؟ فقال دعوني أسمع كلامه فدنا من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا محمد أنشدني من شعرك، قال: ما هو شعر ولكنه كلام الله الذي ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله، فقال: اتل علي منه شيئا! فقرء عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "حم السجدة" فلما بلغ قوله: "فإن اعرضوا فقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود" قال: فاقشعر الوليد وقامت كل شعرة في رأسه ولحيته، ومر إلى بيته ولم يرجع إلى قريش من ذلك. فمشوا إلى أبي جهل فقالوا: "يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد أما تراه لم يرجع إلينا"، فغدا أبو جهل الي الوليد فقال: "يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا واشمت بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد"، فقال: "ما صبوت إلى دينه ولكني سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود"، فقال له أبو جهل: "أخطب هو؟" قال: "لا، إن الخطب كلام متصل وهذا كلام منثور ولا يشبه بعضه بعضا". قال: افشعر هو؟ قال: "لا، اما إني لقد سمعت اشعار العرب بسيطها ومديدها ورملها ورجزها وما هو بشعر". قال: فما هو؟ قال: "دعني افكر فيه". فلما كان من الغد قالوا له: "يا ابا عبد شمس ما تقول فيما قلناه؟ قال: قولوا: هو سحر، فانه آخذ بقلوب الناس، فأنزل على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك: "ذرني ومن خلقت وحيدا". وإنما سمي وحيدا لانه قال لقريش: أنا أتوحد لكسوة البيت سنة وعليكم في جماعتكم سنة، وكان له مال كثير وحدائق.
النتيجة: يلاحظ أن الوليد مع كل معرفته بالأدب والشعر لم يكن بمقدوره أن يصنف القرآن تحت ايٍّ من صنوف الأدب العربي، وقد أخذ القرآن منه مأخذاً جعله لا يستطيع تفسير تلك الجاذبية غير الطبيعية له الا بالسحر.

(الآية الثالثة) الميزان ج١٢، ص١٩٧، في تفسير قوله تعالى "إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ" (الحجر:٩٥): وفي تفسير العياشي عن ابان بن عثمان الاحمر رفعه قال كان المستهزئون خمسة من قريش الوليد بن المغيرة المخزومى والعاص بن وائل السهمى والحارث بن حنظلة والاسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري والاسود بن المطلب بن اسد، فلما قال الله: "إنا كفيناك المستهزئين" علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم انه قد اخزاهم فأماتهم الله بشر ميتات. ورواه الصدوق في المعاني باسناده عن ابان وروى فيه ايضا والطبرسي في الاحتجاج عن موسى بن جعفر عن آبائه عن على عليه السلام ما في هذا المعنى، وهو حديث طويل فيه تفصيل هلاك كل من هؤلاء الخمسة.

(الآية الرابعة) الميزان ج٢٠، ص٣٧٥، قوله تعالى "قل يا أيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون" (الكافرون:١-٢): في الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الانباري في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والاسود بن المطلب وأمية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ولنشترك نحن وانت في أمرنا كله، فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان الذي انت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظا، فأنزل الله "قل يا أيها الكافرون لا اعبد ما تعبدون" حتى انقضت السورة. اقول: وروى الشيخ في الأمالي بإسناده عن ميناء عن غير واحد من اصحابه قريبا منه.

٣. شهادة وليد بن مغيرة بأن القرآن ليس كلام البشر:

(الشهادة الأولى) الميزان ج٢٠، ص٩٣، في قوله تعالى "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا" الى قوله "عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ". (المدثر:١١-٣٠): وفي الدر المنثور أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل من طريق عكرمة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يريدون أن يجعلوا لك مالا ليعطوه لك فانك أتيت محمدا لتصيب مما عنده. قال: قد علمت قريش أني من أكثرها مالا. قال: فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك منكر أو أنك كاره له، قال: وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني لا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، ومغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته. قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه قال: دعني حتى أفكر فلما فكر قال ما هو إلا سحر يؤثر يأثره عن غيره، فنزلت: "ذرني ومن خلقت وحيدا". وفي المجمع روى العياشي بإسناده عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي عبد الله وأبي جعفر عليهما السلام أن الوحيد ولد الزنا.

(الشهادة الثانية) الميزان ج١٢، ص٣٤٩، في تفسير قوله تعالى "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" (النحل:٩٠): وفي المجمع وجاءت الرواية ان عثمان بن مظعون قال: كنت اسلمت استحياء من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، لكثرة ما كان يعرض عليّ الاسلام ولم يقر الاسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده حال تأمله فشخص بصره نحو السماء كأنه يستفهم شيئا، فلما سرى عنه سألته عن حاله فقال: نعم بينا انا احدثك إذ رأيت جبرائيل في الهواء فأتاني بهذه الآية: "ان الله يأمر بالعدل والاحسان" فقرأها عليّ إلى آخرها فقر الاسلام في قلبى. واتيت عمه ابا طالب فاخبرته فقال: "يا آل قريش اتبعوا محمدا ترشدوا فانه لا يأمركم الا بمكارم الاخلاق"، وأتيت الوليد بن المغيرة وقرأت عليه هذه الاية فقال: "ان كان محمد قاله فنعم ما قال، وان قاله ربه فنعم ما قال". قال فانزل الله: "أفرأيت الذى تولى واعطى قليلا واكدى" الحديث.

(الشهادة الثالثة) الوليد بن المغيرة المخزومي بعد أن سمع القرآن لأوّل مرّة على أفواه المسلمين أعجبه فقال على ملأ من قريش: يا عجباً لما يقول ابن أبي كبشة، فوالله ما هو بشعرٍ ولا بسحرٍ ولا بهذي جنون، وإنّ قوله لمن كلام الله. [تفسير الطبري: ج٢٩، ص٩٨]
(هناك احتمالات مختلفة لتسمية المشركين رسول الله بابن ابي كبشة لا ضرورة الى ذكرها، والرسول صلّى الله عليه وآله أعظم وأكرم من أن يُعيّر بهذه الألقاب).

ثامناً. الفرق بين القرآن والشعر:

١. أعذب الشـــعر أكذبه: المعروف عن الشـــعر ان احلاه اكذبه، ونحن نجد ان الشـــعراء انما يتقنون وجوه الكلام إذا ارادوا توصـيف الطبيعة او الصـفات الانسـانية المثيرة مثل الشـجاعة والجمال والمرأة، ونحو ذلك مما يتوسع فيه الخيال، ولا يقولون الا ما يوحي إليهم وهمهم وتصورهم، وهذا هو الفن.

٢. ضعف الشعر في قول الحق: اما إذا أراد الشعراء توصيف حقيقة من حقائق الكون على ما هي عليه من دون زيادة او نقيصـة خصـوصـا إذا كان من الغيب فانهم لا يسـتطيعون توسـعا، ولا يأتون بالمحسـنات من الكلام والبديع من الشعر، حتى ان شعراء المسلمين كانوا يقدّمون على قصـائدهم في مدح الرسول صـلى الله عليه وآله وسـلم واهل البيت عليهم السـلام من اكاذيبهم في الغزل فيأتون بالعجائب وإذا ما انتقلوا الى المديح بما هو حق من صفاتهم عليهم السلام خارت قواهم وتوقفت اذواقهم.

ولذلك لا تجد في الشـعر العربي في العصـر الاسـلامي ما تجده من الحلاوة في الشـعر الجاهلي لان الجاهلي ما كان يتقي الكذب ولا المبالغة.

٣. قوة القرآن مع قول الحق: اما القرآن فانه لا يقول الا الحق ومع ذلك فانه يعلو ولا يعلى عليه. والقرآن ليس شـعرا ولكنه أحلى من كل شـعر حتى أنك تجد فيه السـجع بوضـوح أي التناسـب في اواخر الآيات كأنها قوافي الشعر، ولكن سرعان ما تتغير القافية لئلا يشبه الشعر. ولذلك ارتبك الكفرة ماذا يسمونه هل هو شعر ام هو سحر؟

٤. مَن يدرك حلاوة القرآن: وحلاوة الفاظ القرآن وســـبكه يدركه كل أحد حتى من لا يجيد العربية، واما بلاغة الآيات وفصـــاحتها ودقائق بيانها فمما لا يدركه الا اهل الفن، وما كان يدركه في العرب كما يدركه أمثال لبيد بن ربيعة وفي قريش امثال وليد بن مغيرة، ويُعلم الاعجاز من هذه الجهة بمراجعة اهل الفن وهو من رجوع الجاهل الى العالم، كما ان عامة الناس في عصـر موسـى عليه السلام ما كانوا يعلمون الفرق بين سـحر السـحرة وإلقاء العصـا، ولكن السـحرة كانوا علماء وتبين لهم بأظهر من الشـمس ان ما قام به موسـى عليه السلام ليس سحرا بل هو امر مرتبط بالسماء.

[٧]

تاسعاً. كيفية الإعجاز بالبلاغة:

١. قوام البلاغة أمران: ان البلاغة تتوقف على امرين: الاول إدراك المعنى او خلقه، والثاني اختيار التعبير بحيث يؤثر تأثيرا بليغا في السامع.

٢. بلاغة الشاعر والأديب: والشاعر انما امتاز بشعره لأنه يملك الامرين:

(الأمر الأول) شعور الشاعر: فله شعور خاص مرهف يشعر به امورا دقيقة بدقة الشَعر او يخلق في ذهنه معاني دقيقة.

(الأمر الثاني) اختيار التعبير: ثم يختار من الالفاظ ما يؤثر تأثيرا بليغا في الســـامع فلا يأتي بالمعنى ضـــمن لفظ واضح، موضوع له لغةً، بل يختار تركيبا خاصا من الالفاظ، ولا يختلق اللفظ وانما يختلق التركيب وهنا يحصـــل الاختلاف، ونجد من الشـــعراء والادباء من يصـــل الى القمة ومنهم المتوســـطون ومنهم من هو في الحضيض.

٣. بلاغة القرآن: تقوم بلاغة القرآن على نفس الأمرين:

(الأمر الأول) الله العالم بالحقائق: ان الله تعالى يعلم حقائق الامور على ما هي عليه، ونحن إذا أردنا ان نخبر عن حقيقة فقد نصـوّرها أكبر مما هي عليه او أصـغر، لأننا لا نحيط بالحقائق ولا نعرفها تمام المعرفة حتى اننا لا نعرف أنفسنا تمام المعرفة فكيف بغيرنا.

(الأمر الثاني) الله العالم بالتعبير الأبلغ: ومن جهة اخرى فانه تعالى يعلم ما هو الأبلغ في التأثير على نفوس السامعين من انحاء التعبير، فيأتي به لأنه خالق هذه النفوس والعارف بكل اسرارها، ولذلك كان القرآن بالغا

حد الاعجاز في التعبير بمعنى أنه بلغ في البلاغة وقوة التأثير في الانسان حدّا لا يمكن لأيّ بشر أن يأتي بمثله، وهذا هو الذي أثبته تحدّي القرآن لفصحاء العرب وبُلغائهم طيلة التاريخ ولم يتمكن أحد من الاتيان بقطعة أدبية تُجاري القرآن وتبلغ شأوه.

٤. سر الإعجاز البلاغي للقرآن:

ليس الإعجاز من جهة أن القرآن في أعلى مراتب البلاغة، حتى يقال انه لو لم ينزل القرآن لكان هناك غيره من الخطب او الاشعار ما هو في أعلى مراتب البلاغة بحيث يغلب من دونه فيعجزون من الاتيان بمثله، بل يأتي إعجاز القرآن من جهة انه لم يتمكن أحد حتى الآن ومع كل هذا التحدي ان يأتي بما يقاربه في التأثير في الانسان ببلاغته وبأسلوبه، فالفاصل بينه وبين أعلى مراتب البلاغة من سائر الكلام بعد شاسع لا يدركه أحد من البشر، فيدل ذلك على أنه لا يمكن أن يكون من صنع انسان مهما كان شأنه.

٥. من مظاهر بلاغته: إنه آية في بلاغته وفي ايجازه وفي تفصيله وفي سبكه واسلوبه الفريد الذي يأخذ بمجامع القلوب، حيث لا يوجد له مثيل في كلام العرب وغيرهم، لا هو شعر ولا هو نثر، وهو آية في انتخاب الكلمات، وفي موسيقى الالفاظ، وفي كل جهة من محسنات الكلام.

عاشراً. شبهتان حول الإعجاز البلاغي: اثيرت شبهتان في امكان كون البيان والتعبير معجزا في حد ذاته:

١. الشبهة الاولى: أن التعبير مصنوع للبشر، فالإنسان هو واضع الالفاظ للدلالة على المعاني، وهو الواضع للتراكيب الكلامية لتدل على مقاصد خاصة، وهو الواضع للتشبيهات والاستعارات وطرق التجوز باللفظ ليتجاوز منها بطريقة لطيفة عن المعاني الاولية الى مقاصد اخرى غير مدلولة للّفظ بالوضع الحقيقي، وهو الواضع لكل المحسنات البديعية، وهو المبتكر للشعر والنثر والانحاء المختلفة منها، فالتعبير المعجز لا يخرج عن هذه المجموعة، ويدخل ضمن مبتكرات الانسان، فكيف يمكن ان يكون معجزا له؟

الجواب (الانسان وضع الألفاظ لا التركيب): ان المصنوع للإنسان هو وضع الالفاظ للمعاني، واما تركيبها للدلالة على معنى مركب فهو يتبع ذوق الانسان، فكل واحد منهم يحاول تفهيم المعنى المراد بواسطة مجموعة من الالفاظ وتركيبها، ومن الواضح تماماً اختلاف الناس في تركيب الكلمات وانشاء الجمل، وإحداث أنحاء من التشبيه والتجوز والاستعارة والاتيان بأنحاء من المحسنات البديعية، فاذا صح ذلك فلا مانع من ان يكون هناك تركيب خاص لا يستطيع أحد ان يأتي بمثله ويجاريه.

٢. الثانية (خلط المعجز وغيره بالقرآن): أنه لو فرض وجود تعبير معجز من بين مجموع التراكيب الكلامية المعبرة عن معنى واحد كما هو اساس القول بالإعجاز، فالقرآن حيث يأتي بمعنى واحد ضمن تراكيب متعددة فان واحدة منها تكون بالغة حد الاعجاز وليس كلها، ونحن نجد ان القرآن ينقل قصص الاقدمين من الامم وقصص الرسل سلام الله عليهم بصور مختلفة، فيكون المعجز احدى هذه الصور لا كلها، والنتيجة ان القران يشتمل على المعجز وغيره فلا يستحيل على الناس الاتيان بمثل بعض القران.

الجواب: هذه الشبهة ضعفها واضح، وذلك لأنها مبتنية على دعوى ان من بين التراكيب الكلامية تركيب واحد خارق للقدرة البشرية، وهذه الدعوى باطلة بل يمكن ان تكون هناك عدة تراكيب يعجز الانسان ان يأتي بما يماثلها فاذا فرض قبول أصل الموضوع اي وجود تركيب كلامي معجز فلا مانع من تعدده.

الحادي عشر. القول بالصرف:

١. سبب القول بالصرف: وبسبب هاتين الشبهتين وغيرهما مما يذكر او لا يذكر من وجوه الاستبعاد في ان يكون نوع من التعبير معجزا في حد ذاته، ذهب جمع من العلماء قديما منهم الشريف المرتضى قدس سره الى القول بالصرف.

٢. معنى الصرف: ومعناه ان الموجب لعدم تمكن الناس من مواجهة هذا التحدي ليس هو استحالته في حد ذاته، بل السبب ان الله تعالى يصرف ارادة من اراد المحاولة فيتكاسل او يظهر العجز لعدم انقداح الارادة في ذهنه رغما عليه.

٣. أين الإعجاز فيه: فالإعجاز من جهة الارادة الالهية القاهرة، وليس من جهة ضعف الانسان واقعاً او استحالة الاتيان بالمثل في حد ذاته، وربما لا يشعر الانسان بسلب الارادة بل لا يوفق الى محاولة التحدي لعدم ملاءمة الظروف وكل ذلك من الله تعالى.

جواب القول بالصرف:

١. ليس القرآن آية اذن: بناءً على القول بالصرف فالقرآن ليس آية من آيات الله تعالى ولا معجزة تثبت الرسالة لان الاعجاز انما هو بالصرف لا بالقرآن بذاته، والقرآن يصرح في آيات عديدة بأنه آية كافية لإثبات الرسالة، قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ..)[٣] وقال ايضا (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى)[٤].

٢. لا يشعر أحد أن الصرف آية: بل الصرف بنفسه ليس آية لأنه لا يشعر به أحد، وانما يشعر المخاطبون بأنهم لا يمكنهم الاتيان بمثل هذا الكتاب لمانع خارجي او لا يوفقون له، لا انه بمرحلة من العلم والبلاغة بحيث لا يمكن الاتيان بمثله، والناس في عصر موسى عليه السلام ايضا كانوا يعلمون انهم لا يقدرون ان يأتوا بمثل ما أتى به السحرة، ولكن لا يدل ذلك على انه معجز.

التحدّي

أولاً. ما هو التحدّي:

١. مطالبة الإتيان بالمثل: يتحدّى القرآن كل من يزعم انه يستطيع ان يأتي بمثله، وذلك بقوله (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٥] كما قال تعالى (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)[٦].

٢. وجه التحدّي: ان هذه الدعوى اي كون القرآن من صنع الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لو صح لأمكن لغيره اذا كان مماثلا له في الثقافة والعلم والبيان أن يأتي بمثله، وكان في المجتمع العربي كثير ممن يدعي انه مثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بل اعلى منه، وكانوا في الفصاحة والبلاغة في اعلى المراتب كما هو واضح من اشعارهم فلا بد من تمكنهم من الاتيان بسورة على الاقل تماثل السور القرآنية في الفصاحة والبلاغة، وان لم يتمكنوا من مجاراته في قوة المنطق والمعرفة الالهية الواضحة والاشتمال على الاخبار الغيبية والقوانين التشريعية القوية والمتماسكة والثقافة الدينية المتكاملة وغير ذلك مما يمتاز به هذا الكتاب العظيم مما لم ينته الكشف عنها ولن ينتهي أبدا.

---

[٣] العنكبوت: ٥٠ – ٥١.
[٤] طه: ١٣٣.
[٥] البقرة: ٢٣.
[٦] الانفال: ٣١.

ثانياً. التدرّج في التحدّي: نقصد بالتدرّج تقليل المصالبات عند التحدّى، مثلاً تتحدّى أحداً فتطالبه أن يرفع ثقلاً كبيراً، فإذا لم يستطع خفّفت الثقل بعض الشيء ثم طالبته ثانيةً برفعه.

١. كيفية التدرج:

(الإتيان بكامل القرآن): حيث ورد التحدّي بالإتيان بمثل القرآن ممّا يتراءى منه الاتيان بكامله في سورة الاسراء وهي مكية بقوله تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[٧].

(الإتيان بعشر سور): ثم بالاتيان بعشر سور مثله كما في سورة هود قال تعالى (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[٨].

(الإتيان بسورة واحدة): ثم بسورة واحدة كما في سورة يونس (أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)[٩].

٢. سبب التدرّج:

(المماثلة في الفصاحة لا الحجم): ولعل المراد بالآية الاولى المماثلة في الفصاحة وغيرها من المميزات لا المماثلة في الحجم فلو استطاع أحد ان يأتي بسورة مثل سور القران كان نقضا للتحدي.

(التنزّل): ولكن التحدي بالعشر ثم بسورة واحدة يبدو أنّه من باب التنزل بمعنى انهم لم يتمكنوا من الاتيان بالعشر فتنزل التحدي الى سورة واحدة ولكن المعروف ان سورة هود بعد سورة يونس في ترتيب النزول.

(التحدّي بمطلق الكلام): ومهما كان فالظاهر ان الغرض هو التحدّي بمطلق الكلام الذي يشبه القرآن لا خصوص عدد العشر او السورة فان السورة كما تنطبق على البقرة وآل عمران تنطبق على الكوثر والنصر فالعدد والمقدار ليسا داخلين في الغرض.

ثالثاً. التحدّي بالرسول:

١. مورد التحدي: هناك وجه آخر من التحدّي وهو بلحاظ أن تكون السورة من إنشاء رجل امّيّ كالرسول صلى الله عليه وآله وسلم، لم يقرأ قبل ذلك كتابا ولم يكتب خطّا، وعليه يكون الضمير في سورة البقرة آية٢٣ في قوله (من مثله) يعود الى قوله (عبدنا) أي الرسول، فيكون المعنى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا محمد فأتوا بسورة من مثل محمد).

٢. مآخذ على هذا الكلام:

(لا يمنع الاتيان بمثل القرآن): بناءً على هذا الاحتمال تبقى السورة المطلوبة في التحدّي نكرة تنطبق على أيّ مجموعة من الكلام يمكن إطلاق السورة عليها، حيث إن التحدّي بأن يكون المنشئ له اميّا فحسب ولا شك في إمكان ذلك، وانما التحدّي بأن تكون السورة مثل القرآن في الفصاحة وغيرها.

(التحدي للجميع لا مجرد الأميين): مضافا الى أن قوله تعالى (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ).[١٠] يتحدّى الجن والانس لا خصوص من كان اميا كما أنه يصرّح بأن التحدّي انما هو بمثل القرآن لا كونه من مثل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

---

[٧] الاسراء: ٨٨.
[٨] هود: ١٣ – ١٤.
[٩] يونس: ٣٨.
[١٠] الاسراء: ٨٨.

(التحدّي بالقرآن لا بالرسول): الضمير في قوله (من مثله) يعود الى قوله (ما نزلنا) اي القرآن، لأن التحدّي هو أن تكون السورة مثل القرآن في الفصاحة وغيرها. وكذلك قوله (عشر سور مثله مفتريات) في سورة هود وقوله (سورة مثله) في سورة يونس يدلان على ان التحدي بمثل القران فكل هذه قرائن على أنّ الضمير هنا يعود الى القرآن، وعليه فمفاد هذه الآية اثبات أن القرآن بذاته معجز لا من جهة كون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم اميا.

٣. ليس هذا تحدياً: بل يهدف الى رفع اتهام الرسول بجعل القرآن من نفسه:

(لو لم يكن أمياً لارتاب الناس): يقول تعالى (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)[١١] اي لو كنت قبل نزول الوحي تكتب وتقرأ لارتاب المبطلون وهم المناوئون للرسالة المجيدة فكانوا يقولون ان ما يأتي به انما هو مما تعلمه من العلماء او قرأه في الكتب.

(لم يظهر علم من الرسول قبل القرآن): يقول تعالى (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)[١٢] اي لو شاء الله تعالى ان لا ينزّل عليّ هذا الكتاب ما كان لي ان اتلوه عليكم من عندي وما كان لكم طريق الى الوصول اليه لأني كنت فيكم اربعين سنة قبل نزول الوحي ولم تسمعوا مني شعرا ولا خطابة ولم أقرأ كتابا، والنبوغ إذا لم يظهر الى الاربعين فانه لن يظهر فيما بعد.

(لا يوجد من يأخذ منه الرسول): مع ان هذا الاتهام ايضا كان واضح البطلان اذ لم يوجد في ذلك العصر ولا في اي زمان ومكان ما يمكن ان يستقي منه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كل هذه المعلومات، فلم يصدر منه بيان ولا دون قانونا ولا نقل حديثا عن الامم السالفة ولا اوضح سيرة الانبياء السابقين ولا نزّههم عما لفّق حولهم من اكاذيب الكتب الموضوعة الى غير ذلك من العلم الذي جاء به القران الكريم على يد هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وآله وسلم.

رابعاً. عجز البشر عن الإتيان بمثل القرآن:

١. عجز العرب أمام التحدي: إنّ تحليل التاريخ يكشف لنا عجز العرب أمام تحدّي الرسول الأكرم:

(تحدي الفصحاء) وذلك أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قد بقي مدّة عشرين سنة يطالب العرب أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مسفّهاً آراءهم وأديانهم، وهم أهل البلاغة والفصاحة، وفيهم أساطينها وأركانها، ومنهم الخطباء الحاذقون والشعراء المُفْلقون.

(سكوت الفصحاء أمامه) ولكنهم مع ذلك لم ينبسوا ببنت شفة، ولم يجرؤ أحد منهم على إبداع كلام يعارض فيه القرآن، فلم يكن لهم سبيل الى مواجهته إلا الحرب، وهذا شأن الضعيف الذي لا سبيل له الى رد التحدي وصد المتحدي إلا أن يسفك دمه إن استطاع.

(وما أفادت الحمية) وكما أن الحمية العربية كانت تتأجج في قلوبهم إذا ما هاجمهم آخرون ليذلوهم قتلا ونهباً، فيحملون السلاح دفاعاً عن عرضهم وكرامتهم، فإنهم اذا تحداهم أحدٌ بشعرٍ او خطبةٍ أخذتهم الأنفة فعارضوه بقصائدهم وخطبهم خصوصاً إذا كان المتحدي بين ظهرانيهم، يقابلهم بوجهه ويطالبهم أن يتعاونوا جميعاً ليأتوا بمثل أتى به، [قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا] (الإسراء:٨٨)، فسكوتهم واستسلامهم يدل دلالةً واضحةً أكيدة على عجزهم وخذلانهم.

---

[١١] العنكبوت: ٤٨.

[١٢] يونس: ١٦.

٢. دَفْعُ تَوَهّم: ربما يتصور الغافل أنّ البلغاء المعاصرين لرسول الله، قد عارضوه بكتاب أو سور مثل كتابه وسوره، ولكنه اختفى أثره في شعاع ضوء قدرة الإسلام والمسلمين وسلطانهم على الجزيرة وخارجها:
(الجواب: لو كان لبان) إنّه رجمٌ بالغيب وتصوّر باطل لا تصدقه الموازين التاريخية والعلمية، إذ لو كانت ثمة معارضة ومقابلة، لما اختفى على العرب المعاصرين ولا على غيرهم. كيف، وإن الإتيان بمثل معجزته، يسجل للمعارض خلود الذكر وسموّ الشرف، بل لَسَعى أعداء الإسلام في نشره بين المعتنقين لدينه وغيرهم، لأنّهم يجدون فيه بغيتهم.
(جواب السيد الخوئي) يقول آية الله الخوئي: إنّ هذه المعارضة لو كانت حاصلة لأعلنتها العرب في أنديتها، وشَهَرتها في مواسمها وأسواقها، وَلأخذ منه أعداء الإسلام نشيداً يوقعونه في كل مجلس، وذكراً يرددونه في كل مناسبة، وعَلَّمَه السلف للخلف، وتحفّظوا عليه تحفّظ المدعي على حجّته، وكان ذلك أقرّ لعيونهم من الاحتفاظ بتاريخ السلف. كيف، وأشعار الجاهلية ملأت كتب التاريخ وجوامع الأدب، مع أنا لا نرى أثراً لهذه المعارضة. (البيان في تفسير القرآن، ص ٥٢)
(تفاهة مَن حاول الرد) وممّا يدلّ على عدم وجود هذه المعارضة اللائقة بالذكر، ما ضبطه التاريخ من كلام مسيلمة الكذاب وغيره ممّن ادعوا النبوة وأرادوا أن يخدعوا بسطاء العقول، فجاءوا بجمل تافهة ساقطة، لا يقام لها وزن ولا قيمة، وسنذكر ذلك لاحقاً.
(سكوت العرب غير المسلمين) وقد تحدّى القرآن جميع الناس سلفاً وخلفاً، وهناك اليوم من العرب غير المسلمين من تؤيدهم القُوَى العظمى في العالم، فلو كانت المعارضة ممكنةً لقام هؤلاء بها ليحطوّا من شأن هذا الكتاب والنبّي العظيم الذي أتى به، وزعزعوا بذلك إيمان المسلمين، ولكن لا نرى من هذا الأمر أثراً.

خامساً. محاولات رد التحدي: ذكر التاريخ محاولات بائسةً ويائسة في رد تحدي القرآن نذكر بعضها:
١. مسيلمة الكذاب:
(رواية ابن هشام) كتب مسيلمة بن حبيب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "مِنْ مُسَيْلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك. أمّا بعد، فإنّي قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون".
فلما جاء الكتاب، كتب رسول الله إلى مسيلمة: "بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب، السلام على من اتّبع الهُدى. أمّا بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمُتَّقين". وذلك في آخر سنة عشر[١٣].
(رواية الطبري) إنّ وفد بني حنيفة أتوا رسول الله مع مسيلمة، فلما رجعوا وانتهوا إلى اليمامة، ارتدّ مسيلمة وتنبّأ وتكذّب له، وقال: "إنّي قد أُشركت في الأمر معه". ثم جعل يسجع السجاعات ويقول لهم فيما يقول، مضاهاةً للقرآن[١٤].
(بعض محاولاته) وظن المسكين أن قوة القرآن في السجع فقط، فقال أمثال هذه الجملة التافهة:
"الفيل، ما الفيل، وما أدراك ما الفيل له ذنب وبيل، وخرطوم طويل".
"يا ضفدع بنت ضفدعين، نقي ما تنقين، نصفك في الماء ونصفك في الطين، لا الماء تكدّرين، ولا الشارب تمنعين".

---

[١٣] السيرة النبوية لابن هشام، ج ٢، ص ٦٠٠. وتاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٩٩.
[١٤] تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٣٩٤.

وعلى هذا الغرار سائر كلماته المنسوبة إليه. وكلها تعرب عن جهل وحماقة فيه. ولذلك، لما ذهب الأحنف بن قيس مع عمّه إلى مسيلمة، وخرجا من عنده، وقال الأحنف لعمّه. "كيف رأيته؟"، قال: "ليس بمتنبيء صادق، ولا بكذّاب حاذق"[١٥].

٢. سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية:
كانت قبيلتها بنو تغلب نصرانية، فلما ادعت سجاح النبوة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله استجاب لها بعض قومها. ولم تَدّع قرآناً، وإنّما كانت تزعم أنّه يوحى إليها بما تأمر، وإليك بعض ما زعمت أنه وحي: (إنّه الوحي، أعدّوا الركاب، واستعدوا للنّهاب، ثم أغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب). فتوجه مسيلمة الى قتالها، فجهّزت أتباعها بهذا المقال: (عليكم باليمامة، ودفّوا دفيف الحمامة، فإنّها غزوة صرامة، لا يلحقكم بعدها ملامة). فلم يحاربها مسيلمة بل عرض عليها الزواج فرضيت. ويروي التاريخ أنّها أسلمت بعد مقتل مسيلمة وحَسُن إسلامها[١٦]. وليس في وحيها المزعوم شيءٌ سوى السجع.

٣. الأسود العنسي:
كان رجلاً فصيحاً معروفاً بالكهانة، والسجع، والخطابة، والشعر، والنسب، تنبّأ على عهد النبي وخرج باليمن وحاول أن يباري القرآن بتسجيع الكلم فقط، فكان مما قال: "سبّح اسم ربّك الأعلى، الّذي يسّر على الحبلى، فأخرج منها نسمة تسعى، من بين أضلاع وحشى، فمنهم من يموت ويدسّ في الثرى، ومنهم من يعيش ويبقى". بدأ بآيةٍ قرآنية وأضاف كلاماً مستهجناً يُخزي المتكلّم ويُضحك السامع.

هكذا حاول مَن أراد أن يتصدى للقرآن في عهد الرسالة المبكّرة، وهم من سفلة القوم اغتروا بسجعهم فظنوا أن به الفلج كله، وأما البلغاء العقلاء ممن مارسوا الأدب بما يحتويه من فكرٍ عميق وسلاسةٍ وجمال، فيستسيغه العقل السليم ويرتاح اليه القلب المستقيم، فلم يخوضوا غمار القرآن ولا اقتربوا منه، فهم بين ساكت لم ينبس ببنت شفه ومتحدثٍ أطرى في مديح القرآن.

[٩]

سادساً. المتهمون بمعارضة القرآن: بعد عصر الرسالة المجيدة، اتهم الناس بعض الأدباء والشعراء بالزندقة، وكان أقوى حججهم عليهم معارضة القرآن، وفي كل ذلك شكوك واضحة لا يرتاح العاقل بعدها لما قيل، ولعلها جميعاً او أغلبها كان بسبب حسد القوم على تفوّق هؤلاء، فمن أبرزهم:

١. عبد الله بن المُقَفّع: (المتوفي ١٤٥ هـ)
من أدباء القرن الثاني الهجري، ومترجم كتاب "كليلة ودمنة". رموه بالإلحاد وهو يصرّح بإسلامه في مقدمة ترجمته، وقد نسب إليه أنّه عارض القرآن بكتابه الدّرة اليتيمية، ولم يذكر التاريخ أنه ادعى ذلك.

٢. المتنبي، أحمد بن الحسين: (المتوفي ٣٥٤ هـ)
من أبرز شعراء زمانه ولعله أبرزهم جميعاً، له ديوان كبير كثر شُرّاحه، ولد في أسرة مسلمة ولكنه اتهم بالتنبّؤ، ولم يرو التاريخ مما ادّعوا أنه أتى بوحي مزعوم إلا هذه الجمل: (والنجم السيّار، والفلك الدّوّار، والليل والنّهار، إنّ الكافر لفي أخطار، إمضِ على سُنَّتِك، واقْفُ أَثَرَ مَنْ قبلك من المرسلين، فإنّ الله قامعٌ بك زيغ من أَلْحَدَ في دينه وضلّ عن سبيله)[١٧]، ومثل هذا لا يثبت عليه شيئاً.

---

[١٥] لاحظ ما نسب إليه في تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٩٨-٤٩٩، وص ٥٠٦.
[١٦] تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٩٦ -٥٠٠.
[١٧] إعجاز القرآن، رافعي، ص ٢٠٨.

٣. أبو العلاء المعرّي: (المتوفي ٤٤٩)
أحمد بن عبد الله من معرّة النعمان، أحد الأدباء الفحول، والشعراء البارزين، رماه البعض بالكفر أمثال ياقوت الحَمَوي، والذَّهبي، وسعد الدين التفتازاني، والخطيب البغدادي.
وإن أكثر من ينسب إلى أبي العلاء معارضته للقرآن، يستند إلى ما كَتَبَهُ ياقوت عنه، وياقوت هذا كان متحاملاً على أبي العلاء، ويكفي في ذلك قوله: (كان المعرّي حماراً لا يفقه شيئا)، وهذا كلام بذيء لا يُقال في أديبٍ أريب كأبي العلاء، وإن كان الرجل عدواً له.
وهناك من دافع عن ابي العلاء، منهم ابن عديم الحلّي، المتوفى عام ٦٦٠ هـ، ألّف كتاباً باسم (الإنصاف والتحري في دفع الظلم والتجرّي عن أبي العلاء المعرّي). فأثبت اسلامه وأضاف: (إنّ سائر ما في ديوانه من الأشعار الموهمة، فهي إمّا مكذوبة عليه أو هي مؤولة)[١٨].
وقد نسبوا إليه أنّه عارض القرآن بكتاب أسماه: (الفصول والغايات في مجاراة السور والآيات)، ويمكن رد كل تلك الاتهامات بما نقل عنه في كتابه (الغُفْران)، قال رداً على ابن الراوندي: (وأَجْمَعَ مُلْحِدٌ ومهتدي، وناكب عن المحجة ومُقتدي، أنّ هذا الكتاب الّذي جاء به محمد كتاب بهر بالإعجاز، ولقي عدوه بالأرجاز، ما هذا على مثال، ولا أشبه غريب الأمثال، ما هو من القصيد الموزون، ولا في الرجز من سهل وحزون، ولا شاكل خطابة العرب، ولا سجع الكهنة ذوي الإرب... وإنّ الآية منه أو بعض الآية لتعترض في أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه كالشهاب المتلألي في جنح غسق، والزهرة البادية في جدوب ذات نسق، فتبارك الله أحسن الخالقين)[١٩].

سابعاً. المعارضة السليمة للتحدي:
١. كيف تعارض التحدي: إذا أردت أن ترد على تحدي مَن يعارضك فأت بكلامٍ أقوى منه في تركيب الألفاظ وتناسق المعاني، لا أن تأتي بكلام الخصم وتغيّر فيه بعض الألفاظ وتحاول أن يكون كلامك مسجّعاً ولا تبال بالمعنى فتأتي بكلامٍ تافهٍ ثم تدّعي أنك عارضت المتحدي وخصمته، كما هوالحال في مسيلمة وأمثاله.

٢. مثالان:
(المثال الأول) يمدح جريرٌ بني تميم بقوله:
إذا غَضِبَتْ عليك بنو تميم حسبت الناسَ كلُّهم غِضاباً
وعندما يُسأل المعري عن الشريف المرتضى يقول:
يا سائلي عنه لما جئت تطلبه ألا هو الرجل العاري من العار
إن جئته لرأيت الناس في رجلٍ والدهر في ساعةٍ والأرض في دار
فلو رأى جرير أن قبيلة بني تميم تعادل كل الناس فإن المعرّي يرى رجلاً واحداً يعادل الناس كلهم، ولا يكتفي بذلك بل يرى الدهر كله في الساعة يواجه بها هذا الرجل، والأرض في تلك الدار التي يسكنها، فكان كلام المعرّي أبلغ من كلام جرير كثيراً.
(المثال الثاني) عندما يهاجم الفرزدق جرير مفتخراً ببيته ومعيّراً إياه بأنه ليس له مثلهم، يقول:
إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعائمه أعز وأطولُ
بيتاً بناه لنا المليك وما بنى حكم السماء فإنه لا ينقل

---
[١٨] تاريخ حلب، ج ٤، ص ٧٧-١٨٠.
[١٩] رسالة الغُفْران، ص ٢٦٣.

يا ابن المراغة أين خالك إنني خالي حبيشٌ ذو الفعال الأفضلُ

فيقتبس جرير منه المصراع الأول لا لضعفٍ منه في أن يأتي بمثله بل ليضربه من حيث ضربه، ولا يغيّر الوزن ولا القافية ليُفهمه أنه قادرٌ على كل الأوزان والقوافي، ولكنه يكسر القافية المرفوعة حتى لا يُقال أنه يتبعه، فيقول:

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله مثل الذليل يعوذ تحت القرملِ

إن الذي سمك السماء بنى لنا عزاً علاك فما له من منقلِ

وقضت لنا مضرٌ عليك بفضلنا وقضت ربيعة بالقضاء الفيصلِ

فيتناسى أنه ليس له خال مثل خال الفرزدق، ويشبّه خاله بنباتٍ قصير الساق لا يمكن اللجوء اليه ليمنع الحر او المطر، ويتناسى أيضا أن أباه وجده ليسا كأبي الفرزدق وجده مفتخراً بأن مضر وربيعة يتباهون به دون الفرزدق، هكذا المعارضة الأدبية البليغة.

٣. ما فعله مسيلمة:

اخذ مسيلمة الآيات القرآنية: ﴿الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةِ﴾ (القارعة:١-٣)، فبدّل كلمة القارعة بالفيل، ظناً منه أنه قد أتى بشيء يضاهي به القرآن، ثم لم يدرك أن مثل هذه المقدمة إنما يأتي بها القرآن ليبين هول المقام والخطر العظيم يوم القيامة، فأكمل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ * وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ (القارعة:٤-٥).

اما مسيلمة المسكين فبعد التبديل الذي عمله ليأتي بهذه الجملة المضحكة: (الفيل، ما الفيل وما أدراك ما الفيل)، لم يجد للفيل ما يمدحه به وهو لا يدري لماذا بدّل القارعة بالفيل وما الداعي الى توصيفه، فلعله اغتر بضخامة جسمه فأضاف" (له ذنب وبيل، وخرطوم طويل).

٤. محاولة فاشلة: بعد القرن الهجري الأول، اختلط العرب بسائر الأمم نتيجة الفتوح، فضعفت تلك الحالة السائدة في الجاهلية وبداية الإسلام حيث كانوا ينبهرون بالقرآن انبهاراً يمنعهم من التفكير بمعارضته، ولكن استمر الأدب قوياً صلباً بشعره ووخطبه ورسائله وتواقيعه وسائر اشكاله، فكان الأدباء المعارضون للإسلام يتشجعون احيانا لمعارضته ظناً منهم أنه أمر ممكن، ثم يصابون بخيبة الأمل، أنظر الى الخبر التالي:

روى هشام، أحد أصحاب الإمام جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: اجتمع في بيت الله الحرام أربعة من مشاهير الدهرية وأعاظم الأدباء وكبار الزنادقة، وهم عبد الكريم بن أبي العوجاء وأبو شاكر ميمون بن ديصان وعبد الله بن المقفع وعبد الملك البصري، فخاضوا في الحج ونبي الإسلام وما يجدونه من الضغط على أنفسهم من قوة أهل الدين، ثم استقرت آراؤهم على معارضة القرآن الذي هو أساس الدين ومحوره، فتعهد كل واحد منهم أن ينقض ربعاً من القرآن إلى السنة الآتية... ولما اجتمعوا في الحج القابل وتساءلوا عما فعلوا اعتذر ابن أبي العوجاء قائلاً انه أدهشته آية: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا)[٢٠]، فأشغلته بلاغتها وحجتها البالغة.

واعتذر الثاني قائلاً انه أدهشته آية: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ)[٢١]، فأشغلته عن عمله.

---

[٢٠] سورة الأنبياء: الآية ٢٢.

[٢١] سورة الحج: الآية ٧٣.

وقال ثالثهم أدهشتني آية نوح: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٢٢]، فأشغلتني الفكرة عن غيرها.
قال رابعهم أدهشتني آية يوسف: (فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا)[٢٣]، فأشغلتني بلاغتها الموجزة عن التفكير في غيرها.
قال هشام وإذا بأبي عبد الله الصادق يمر عليهم ويومئ إليهم قائلاً: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)[٢٤]،...انتهى[٢٥].

بيان للآيات الأربع:
الآية الأولى: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلا اللهُ لَفَسَدَتَا. (سورة الأنبياء: الآية ٢٢).
من تفسير الميزان:
١. الخالق واحد: النزاع بين الوثنيين والموحدين ليس في وحدة الاله وكثرته بمعنى الواجب الوجود، الموجود لذاته، الموجد لغيره، فهذا مما لا نزاع في أنه واحد لا شريك له.
٢. النزاع في المعبود: إنما النزاع في الاله بمعنى الرب المعبود، والوثنيون يرون أن تدبير العالم على طبقات أجزائه مفوضة إلى موجودات شريفة مقربين عند الله ينبغى أن يعبدوا حتى يشفعوا لعبادهم عند الله ويقربوهم إليه زلفى، كرب السماء ورب الارض ورب الانسان وهكذا، وهم آلهة من دونه، والله سبحانه إله الالهة وخالق الكل، كما يحكيه عنهم قوله: "ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله" الزخرف: ٨٧.
٣. الألوهية فيهما لا السكنى: والمراد بكون الاله في السماء والارض تعلق ألوهيته بالسماء والارض لا سكناه فيهما فهو كقوله تعالى: "هو الذي في السماء إله وفي الارض إله" الزخرف: ٨٤.
٤. تقرير حجة الآية: انه لو فرض للعالم آلهة فوق الواحد لكانوا مختلفين ذاتا متبائنين حقيقة وتباين حقائقهم يقضى بتباين تدبيرهم فيتفاسد التدبيرات وتفسد السماء والارض لكن النظام الجاري نظام واحد متلائم الاجزاء في غاياتها فليس للعالم آلهة فوق الواحد وهو المطلوب.
٥. وفي كتاب التوحيد للصدوق بإسناده عن هشام بن الحكم قال: قلت لابي عبد الله عليه السلام: ما الدليل على أن الله واحد؟ قال: اتصال التدبير وتمام الصنع، كما قال عزوجل: "لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا".

الآية الثانية: يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ. (سورة الحج: الآية ٧٣).
من تفسير الميزان:
١. المعنى: انه لو فرض أن آلهتهم شاءوا أن يخلقوا ذبابا وهو أضعف الحيوانات عندهم، لم يقدروا عليه ابدا وإن يسلبهم الذباب شيئا مما عليهم لا يستنقذوه بالانتزاع منه.
٢. ضعف آلهتهم: فهذا الوصف يمثل حال آلهتهم من دون الله في قدرتهم على الايجاد وعلى تدبير الامر، حيث لا يقدرون على خلق ذبابة، وعلى تدبير أهون الامور وهو استرداد ما أخذه الذباب منهم وأضرهم بذلك، وكيف يستحق الدعوة والعبادة من كان هذا شأنه؟

---

[٢٢] سورة هود: الآية ٤٤.
[٢٣] سورة يوسف: الآية ٨٠.
[٢٤] سورة الإسراء: الآية ٨٨.
[٢٥] المعجزة الخالدة لهبة الدين الشهرستاني.

٣. ضعفٌ امام الضعيف: قوله: "ضعف الطالب والمطلوب" مقتضى المقام أن يكون المراد بالطالب الآلهة وهي الاصنام المدعوة فإن المفروض أنهم يطلبون خلق الذباب فلا يقدرون، واستنقاذ ما سلبه إياهم فلا يقدرون، والمطلوب الذباب حيث يُطلَب ليُخلَق ويُطلَب ليُستَنقَذ منه.

الآية الثالثة: وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. (سورة هود: الآية ٤٤).

١. معنى الآية: وقال الله للارض بعد هلاك قوم نوح: يا ارض اشربي ماءك، ويا سماء امسكي عن المطر، ونقص الماء ونضب، وقضي امر الله بهلاك قوم نوح، ورست السفينه على جبل الجودي، وقيل هلاكا وبعدا للقوم الظالمين، الذين تجاوزوا حدود الله ولم يؤمنوا به.

٢. من تفسير الميزان:

*** إنهاء العذاب:** في قوله (وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي) لم يصرح باسم قائله وهو الله عز اسمه للتعظيم، والامر تكويني يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الارض ما على وجهها من الماء المتفجر من عيونها، وأن تكف السماء عن امطارها.

*** ماء الأرض وماء السماء:** فيه دلالة على أن الارض والسماء كانتا مشتركتين في اطغاء الماء بأمر الله، كما يبينه قوله تعالى في نفس حادثة قوم نوح: (ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر) القمر: ١٢.

*** وغيض الماء:** أي نقص الماء ونشف عن ظاهر الارض، يقال: غاضت الارض الماء أي نقصته، وذلك باجتماع ما يمكن اجتماعه منه في البحار والبحيرات، وانتشاف ما على سائر البسيطة.

*** وقضي الامر:** أي إنجاز الوعد لنوح عليه السلام من عذاب القوم، وتنفيذ الامر الإلهى بغرقهم وتطهير الارض منهم.

*** واستوت على الجودى:** أي استقرت السفينة على (الجودي) وهو مطلق الجبل والارض الصلبة، وقيل: هو جبل بأرض موصل في سلسلة جبال تنتهي إلى ارمينية وهي المسماة آرارات، وهو اخبار عن اختتام ما كان يلقاه نوح ومن معه من أمر الطوفان.

*** وقيل بعدا للقوم الظالمين:** أي قال الله عز اسمه: بعدا للقوم الظالمين، أي ليبعدوا فأبعدهم بذلك من رحمته وطردهم عن دار كرامته.

*** الصفح عن ذكر الفاعلين:** لم يصرح باسم القائل وهو الله عز اسمه في قوله: (وقيل يا أرض) وقوله: (وقضى الامر) وقوله: (وقيل بعدا)، إما للتعظيم او لأن هذه الامور العظيمة الهائلة المدهشة لن يقدر عليها إلا الواحد القاهر ذكر أم لم يذكر. ولأجل التهويل ايضاً حذف فاعل (غيض الماء) وهو الارض، وفاعل (استوت على الجودى) وهو السفينة، ولم يعيَّن القومُ الظالمون بأنهم قوم نوح، ولا الناجون بأنهم نوح عليه السلام ومن معه في السفينة.

٣. بلاغة الآية: وقد تصدّى السكّاكي في «المفتاح» في بحث البلاغة والفصاحة لبيان بعض خصائص البلاغة في هذه الآية، فقال: والنّظر في هذه الآية من أربع جهات، من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية.

*** من جهة علم البيان:** إنه عزّ وجلّ أراد أن يقول أردنا:

- أن نَرُدّ ما انفجر من الأرض إلى بطنها،
- وأن نقطع طوفان السماء،
- وأن نغيض الماءَ،

- وأن نقضيَ أمر نوح عليه السّلام وهو إنجاز ما كنّا وعدنا من إغراق قومه،
- وأن نسوي السّفينة على الجوديّ،
- وأن نبقي الظّلَمةَ غَرْقى.

فبُنِيَ الكلام على:

- تشبيه المراد بالمأمور (أي الأرض والسماء)،
- وتشبيه تكوين المراد بالأمر (ابلعي، اقلعي)،
- وأن السماوات والأرض تابعة لإرادته كأنها عقلاء مميّزون.

ثم بنى على تشبيهه هذا نَظْمَ الكلام:

- فقال جلّ وعلا: (قيل) على سبيل المجاز عن الإرادة الواقع بسببها قول القائل، وجَعل قرينة المجاز الخطاب للجماد، فقال: (يا أرض ويا سماء)،
- ثم استعار لغور الماء في الأرض البلعَ، للشبه بينهما وهو الذهاب إلى مقر خفي،
- ثم استعار الماء للغذاء، وجعل قرينة الاستعارة لفظة (ابلعي)،
- ثم قال (ماءك) بإضافة الماء إلى الأرض على سبيل المجاز تشبيهاً لاتّصال الماء بالأرض باتصال المِلْك بالمالك،
- ثم اختار لاحتباس المطر الإقلاع الذي هو ترك الفاعل الفعل، للشبه بينهما في عدم ما كان،
- ثم أمَر على سبيل الاستعارة وخاطب في الأمر قائلاً: (أقلعي) لمثل ما تقدم في (ابلعي).

حذف الفاعل: ثم قال: (وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعداً) فلم يصرح بمن غَاض الماءَ، ولا بمن قَضَى الأمر وسوّى السفينة وقال (بعداً)، كما لم يصرح بقائل (يا أرض) و(يا سماء) في صدر الآية، سلوكاً في كل واحد من ذلك لسبيل الكناية أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلاّ من ذي قدرة لا يُكتنه، قهار لا يغالب، فلا مجال لذهاب الوهم إلى أن يكون غيره جلت عظمته قائلاً (يا أرض) و(يا سماء)، ولا غائضاً ما غاض، ولا قاضياً مثل ذلك الأمر الهائل، أو أن تكون تسوية السفينة وإقرارها بتسوية غيره وإقراره.

ثم ختم الكلام بالتعريض تنبيهاً لسالكي مسلكهم في تكذيب الرسل ظلماً لأنفسهم لا غير، خَتْمَ إظهار لمكان السخط ولجهة استحقاقهم إياه، وأن قيامة الطوفان وتلك الصورة الهائلة إنّما كانت لظلمهم.

*** من حيث علم المعاني:** وله جهتان:

الجهة الأولى: النّظر في إفادة كل كلمة فيها:

- اختير(يا) دون سائر أخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وأنها دالة على بعد المنادَى الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة.
- واختير (ابلعي) على ابتلعي لكونه أخصر، ولمجيء حظّ التجانس بينه وبين (أقلعي) أوْفَر.
- وقيل (ماءَك) بالإفراد دون الجمع لما كان في الجمع من صورة الاستكثار المتأتي عنها مقام إظهار الكبرياء والجبروت.
- وإنما لم يقل (ابلعي) بدون المفعول أن لا يستلزم تركه ما ليس بمراد من تعميم الابتلاع للجبال والتلال والبحار وساكنات الماء وغيرها.
- ثم إذ بَيّن المرادَ، اختصر الكلام مع (اقلعي) احترازاً عن الحشْو المستغنى عنه، وهو الوجه في أن لم يقل: قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلَعَت، ويا سماء أقلعي فأقلعت.
- وكذا الأمر دون أن يقال: قُضي أمرُ نوح عليه السّلام، وهو إنجاز ما كان الله وعد نوحاً عليه السّلام من إهلاك قومه، لقصد الاختصار والاستغناء بحرف التعريف عن ذلك.
- ثم قيل: (بعداً للقوم الظالمين) دون أن يقال: ليبعَد القومُ، طلباً للتأكيد مع الاختصار وهو نزول (بعداً) منزلة ليبعَدُوا بعداً.

- ثم أطلق الظلم ليتناول كلّ نوع حتى يدخل فيه ظلمهم أنفسهم لزيادة التنبيه على فظاعة سوء اختيارهم في تكذيب الرسل.

الجهة الثانية: النظر إلى ترتيب الجمل، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها:

- انه قد قدّم النداء على الأمر، فقيل (يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي) دون أن يقال: (ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء)، جرياً على مقتضى اللازم من تقديم التنبيه فيمن كان مأموراً حقيقة، ليتمكّن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادَى قصداً بذلك لمعنى الترشيح، والترشيح هو ذكر ما يلائم المُشبَّهَ به في الاستعارة (أي الانسان الذي يبلع ويقلع) تقويةً لها.
- ثم قدّم أمر الأرض على أمر السماء وابتدىء به لابتداء الطوفان منها، ونزولها لذلك في القصة منزلة الأصل، والأصل أوْلى بالتقديم.
- ثم أتْبَعَهَا قوله (وغيض الماء) لاتّصاله بغيضية الماء وأخذه بحجزتها، ألاَ ترى أصل الكلام: قيل يا أرض ابلعي ماءك فبلعت ماءها ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله، وغيض الماء النازل من السماء فغاض.
- ثم أتبعه ما هو المقصود من القصة وهو قوله تعالى (وقضي الأمر) أي أنجز الموعود ثم أتبعه حديث السفينة وهو قوله (واستوت على الجوديّ).

الجهة الثالثة: النظر فيها من جانب الفصاحة المعنوية:

فهي كما ترى نظمٌ للمعاني لطيفٌ وتأديةٌ لها ملخّصةٌ مبيّنة، بلا تعقيد يعثّر الفكر في طلب المراد، ألفاظها تطابق معانيها ومعانيها تطابق ألفاظها.

الجهة الرابعة: النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية:

فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة، سليمة عن التّنافر، بعيدة عن البشاعة. هذه نهاية كلام المفتاح.

الآية الرابعة: فَلَمَّا اسْتَيْئَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا. (سورة يوسف: الآية ٨٠).

من تفسير الميزان:

يئس واستيأس بمعنى واحد. والنجيّ: القوم يتناجون، والمناجاة: المسارة. والمعنى: فلما استيأسوا أي الإخوة من يوسف ان يخلي عن سبيل أخيه ولو بأخذ أحدهم بدلا منه، خلصوا وخرجوا من بين الناس إلى فراغ يتناجون في امرهم أيرجعون إلى ابيهم وقد اخذ منهم موثقا من الله ان يعيدوا اخاهم إليه ام يقيمون هناك ولا فائدة في اقامتهم، ماذا يصنعون؟

[١١]
القرآن كلام الله

اولاً. ادعاء باطل ضد القرآن:

١. يقولون ان القرآن ليس كلام الله: يقال أن الله تعالى أوحي الى النبي بالمعاني على قلبه وأنّ اللفظ منه صلى الله عليه وآله وسلم، أي أن القرآن من تأليف النبي. فكلّ مَن يدّعي مثل هذا الادعاء يعتبر نفسه مسلماً، لأنه يعتقد بنزول الوحي على الرسول صلى الله عليه وآله.

٢. هذا الادعاء حديث: ظهر مثل هؤلاء المُدّعين في زمننا هذا، ويصـــدر هذا النوع من الادعاء من أناسٍ ليسـت لديهم تخصـصـات تتعلق بالدين مثل الفقه والعلوم القرآنية، ولكن تخصـصـاتهم قريبة منه مثل علم الاجتماع او التاريخ وامثال ذلك.

٣. لا دليل على هذا الادعاء: هذا مجرد ادعاءٍ لم يقيموا عليه أي دليل، ولعل سبب هذا التفكير هو أن عامة الناس اليوم حتى العرب ليس لديهم ذلك الشعور العميق ببلاغة القرآن الخارقة للعادة، ولذا تشجع هؤلاء الأشخاص على مثل هذا الادعاء.

ثانياً. قيمة هذا الادعاء:

١. لا يغيّر من اعجاز القرآن شيئاً: لو فرضنا صحة الادعاء فإن الإعجاز البلاغي للقرآن يبقى في محله، لأنه لم يقدر أحدٌ أن يردّ على تحدى القرآن، وسبق أن قلنا بأن العرب الجاهليين رغم كل تلك القوة البلاغية لديهم استسلموا امام القرآن وحسبوه فوق مقدرة الانسان، فلم يحاولوا مقابلته أبداً، وأما الزنادقة في عصر الإسلام فرغم اغترارهم بالمقدرة الأدبية الهائلة لديهم ومحاولتهم رد تحدى القرآن، إلا أنهم في نهاية الأمر اعترفوا بالهزيمة أمامه.

٢. في صدر الإسلام لم يدّع أحدٌ مثل هذا: في زمن النبي او بعده بقليل كان الناس نوعان، إما أن يكذّب رسول الله وينكر نزول الوحي عليه، او يؤمن به ويشهد أن القرآن كلام الله، لأنهم يفهمون أن مثل هذه البلاغة لا يمكن صدورها من انسان، لذا لم يدع أحد مثل هذا الثنائي، أن تكون المعارف من الله والألفاظ من رسوله.

٣. لعل التوراة والإنجيل من هذا القبيل: هذا الاحتمال وارد بكل جد عن التوراة والإنجيل، والظاهر عدم وجود أي دليل على أن الفاظ هذين الكتابين السماويين من الله تعالى، والبلاغة غير واردةٍ فيهما أبداً ولذا لا يهتم أحد بهذا الموضوع، وقد يكون الأمر كذلك في الواقع، أي أن يكون الكتابان من تعبير الأنبياء، ولعل هذا الأمر هو الذي اوجد نفس الاحتمال لدى البعض بالنسبة للقرآن أيضاً.

٤. النبي والأئمة لم يذكروا مثل ذلك أبداً: لم يرو اهل السنة عن النبي صلى الله عليه وآله، ولم يرو الشيعة عن النبي أو عن آله عليهم السلام أي حديثٍ يؤيد مثل هذا الادعاء، مع ان أبسط المسائل كانوا يُسألون عنه فيجيبون ويصل الينا خبره. فإذا كان مثل هذا الأمر الهام واقعياً لذكرته الكتب الروائية لجميع المسلمين مراتٍ ومرات، ولتم النقاش فيه بين العلماء والمحدثين، ولألفوا فيه كتباً عديدة.

٥. هل تُعدّ المعجزات من مؤهلات الأنبياء: يبدو أن بعض المعجزات كانت من المؤهلات الخاصة التي ألهم الله تعالى بعض أنبيائه بها، فلم يكن دور النبي مجرد رفع يديه بالدعاء ليستجيب الله له وتحدث المعجزة، كما أنه تعالى وهبنا المقدرة على المشي والكلام وما الى ذلك، فنحن نمشي ونتحدث بأنفسنا وإن كان كل ذلك بإذن الله تعالى، واليك مثالان من المواهب الخاصة للأنبياء:

* يقول عيسى عليه السلام ﴿..أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ..﴾[٢٦]، لاحظ أنه عليه السلام قال انه يؤدي العمل بنفسه، ولكن بإذن الله.

* ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾[٢٧]، لو لم يك لموسى عليه السلام دور في هذه القضية فلماذا أمره الله تعالى أن يضرب البحر بعصاه، هذا يدل على أن الله قد جعل مقدرةً خاصةً في تلك العصا لم يجعلها في أي عصا أخرى، وبذلك ميّز موسى عليه السلام عن غيره.

٦. ليس القرآن من تأليف رسول الله: يدل القرآن بنفسه أن الفاظه ليست من النبي صلى الله عليه وآله، بل إنه نزل بألفاظه على النبي وحياً، واليك الدليل في ما يلي.

---

[٢٦] آل عمران:٤٩.
[٢٧] شعراء: ٦٣.

ثالثاً. آيات تدل على نزول القرآن بألفاظه لا مجرد معانيه:

١. نزول القرآن عربياً: هناك آيات تصف القرآن المنزل بأنه عربيّ، ولا شكّ في أنّ العربيّة صفة اللفظ لا المعنى كقوله تعالى:

* ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢٨].
* ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾[٢٩].

٢. لو كان بلغة غير عربية لاعترض الناس: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ..﴾، أي أننا لو أنزلنا القرآن بلغةٍ غير عربية لاستغرب العرب وهم أول مَن تُلي القرآن عليهم، ولتساءلوا كيف ينزل قرآن أعجمي على رجلٍ عربي.

٣. نزوله لكي يُتلى: ومن الآيات ما ورد فيها التعبير بالتلاوة بالنسبة لما انزل من الله تعالى والتلاوة تختص بالألفاظ ايضا لا المعاني وهي آيات كثيرة منها قوله تعالى:

* ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٣٠].
* ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾[٣١].

٤. انه لسان عربي: الآية التالية ورد فيها التعبير باللسان: (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ)[٣٢]، وإنّ اللسان لا يعبّر به الا عن الالفاظ، وهذه الآية كالصريحة في أن التحدي بالقرآن انما هو بألفاظها.

قال الشيخ الطوسي قدس سره في التبيان في تفسير الآية: (قال ابن عباس الذي مالوا اليه بأنه يعلم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وكان اعجمياً هو بلعام وكان قيناً بمكة رومياً نصرانياً. وقال الضحاك: أرادوا به سلمان الفارسي وقال قوم أرادوا به إنساناً يقال له عايش او يعيش كان مولى لحويطب بن عبد العزى أسلم وحسن إسلامه).

ومهما كان فظاهر الآية انهم كانوا يتهمون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنه يأخذ القرآن من شخص آخر وليس وحيا من السماء والآية ترد عليهم بان هذا الشخص ليس عربيا وهذا لسان عربي فلا يمكن ان يكون منه.

وهذا يدل على ان الاحتجاج بنص القرآن من حيث البيان العربي ولو كان من حيث المضمون لامكن ان يقال لا مانع من إلقاء الرجل معارفه بلغته ويكون التعبير من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

٥. آيات تخاطب الرسول: لو كانت ألفاظ القرآن من النبي فلماذا يخاطب النبي في آيات كثيرة ويأمره، مثلاً يقول: "قل"، وهناك خمس سور تبدأ بكلمة "قل"، وهي سور الجن، والكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس، وهناك آيات كثيرة أيبضاً تبدأ بكلمة "قل"، مثل:

* وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (البقرة:٨٠).
* قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة:٩٤).

---

[٢٨] يوسف: ٢.
[٢٩] طه: ١١٣.
[٣٠] عنكبوت: ٥١.
[٣١] مريم: ٧٣.
[٣٢] النحل: ١٠٣.

* او تقول: "يا ايها الرسول"، مثل هذه الآية: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (المائدة:٦٧).

[١٢]

الصراع مع القرآن

صراع الحق والباطل: ليست الحياة الدنيا إلا ساحة قتالٍ بين الحق والباطل، فبعثة الأنبياء تعني أن الحق يغزو الباطل، وامام ذلك فإن صراع الكفار ضد الأنبياء وأصحابهم يعني أن الباطل يغزو الحق، ويظهر هذا الصراع أحياناً على شكل مذبحةٍ دموية او على شكل اتهامات وافتراءات عليهم، وسنشير الآن الى صراع الكفر ضد الإسلام.

أولاً. صراع الكفار مع رسول الله: كلما تظهر رايةٌ للحق يسعى أهل الباطل أن ينزلوها بالإرهاب، فإما يغتالون الشخص او يشوهون سمعته، وهكذا تصرف الأعداء ضد رسول الله صلى الله عليه وآله:

١. اغتيال الرسول: كان ابوطالب عليه السلام حصناً منيعاً للرسول، فلم يتجرأ الأعداء على اغتيال الرسول مادام ابوطالب حياً، وبمجرد وفاته وثبوا على الرسول ليقتلوه فأمره الله تعالى بالهجرة وباءت محاولتهم بالفشل، ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته صلى الله عليه وآله حاولوا بالحروب المتوالية إبادة الرسول وأصحابه وطمس معالم الإسلام قبل أن تزدهر.

٢. تشويه سمعة الرسول: منذ بداية الدعوة حاولوا بشتى الطرق أن يتهموا الرسول بأي تهمة كاذبة علّها تردع الناس عنه، فقالوا مثلا إنه شاعر، او مجنون، او كاهن، او ساحر.

* ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ، أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ﴾[٣٣].

* ﴿قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ﴾[٣٤].

ثانياً. الصراع مع القرآن: لما يئس الكفار من قتل الرسول او تشويه سمعته حملوا على القرآن، واليك الآن بعض ما جنوه:

١. منع الاستماع للقرآن: قرأنا كيف بذلت قريش ما في وسعها لتمنع الناس من الاستماع للرسول ولقرائته للقرآن، لأنهم كانوا عالمين أنهم لو استمعوا الى القرآن لانقلبوا مسلمين.

٢. رد تحدي القرآن: قلنا ان القرآن ابتدأ بتحدي العرب ثم تحدى جميع الناس وطالبهم أن يأتوا بكلامٍ مثله إن استطاعوا، اما العرب اول ظهور الإسلام فكانوا يتمتعون بمقدرةٍ أدبيةٍ عالية ولذا لم يجرئوا على تحدي القرآن لعلمهم أن هذا التحدي غير ممكن، ولكن بعد دخول الأمم الأخرى في الإسلام ضعفت المقدرة الأدبية للناس فظن بعض كبار الأدباء أنهم قادرون على التحدي ولكن سرعان ما انتبهوا الى خطأهم وتراجعوا.

٣. شبهتان في بلاغة القرآن: طرحوا شبهتين على بلاغة القرآن وقد ذكرنا جوابهما، إحداهما أن الألفاظ من صنع البشر فلِمَ لا يستطيع أن يوجد تركيباً ذا بلاغةٍ عالية، والجواب أن الإنسان صانع الألفاظ لا التركيبات، والثانية أن القرآن خليط من المعجز وغير المعجز وأجبنا أنه يجوز وجود تركيبين معجزين لنفس الموضوع.

٤. قالوا ان القرآن ليس كلام الله: أشرنا الى أن بعض المتأخرين يزعمون أن المعلومات نزلت من قبل الله على النبي بصورة وحي، والنبي بيّنها بكلامه فالقرآن كلامه لا كلام الله، وذكرنا جواب هذا الزعم الباطل.

---

[٣٣]. الطور:٢٩-٣٠.

[٣٤]. يونس:٢.

٥. طرح الشبهات الأدبية: حاولوا ايجاد شبهاتٍ ادبيةً على القرآن، وسنرد اولاً بجوابين عامين على ما يقولون، ثم سنذكر بعض تلك الشبهات مع الإجابة عليها، والباقي على نفس المنوال.
٦. شبهاتٌ غير ادبية على قرآن: حاولوا اختلاق شبهاتٍ تأريخيه، وعلمية وما الى ذلك على القرآن وسنرد عليها بعدئذ.

شبهات حول القرآن

اولاً. جوابان على الشبهات الأدبية على القرآن:
سنناقش الآن الشبهات الأدبية المطروحة على القرآن، وأما سائر الشبهات فسنذكرها بعد نقل الجوانب الإعجازية الأخرى للقرآن، زعموا أن القرآن يحتوي على اخطاءٍ أدبية، والآن وقبل نقل أمثلة من هذه الأخطاء المزعومة سنشير الى جوابين كليين في هذا الصدد:

١. ارتقى مشركو العرب قبل الإسلام الى أعلى درجةٍ أدبيةٍ في اللغة العربية، فكانوا يتحدثون بدقة ودون أدنى لحنٍ في الكلام، وقد حاول هؤلاء المشركون قصارى جهدهم لتشويه الدعوة الإسلامية، فإذا كانوا يشاهدون أي خطإٍ في القرآن لعابوا على النبي صلى الله عليه وآله ذلك ولشوهوا سمعته، ولكن لم نسمع طوال تاريخ الدعوة المحمدية صلى الله عليه وآله أن أحداً من المشركين قال: هذا محمد يلحن في الكلام، بل على العكس من ذلك كانوا يمدحون القرآن معجبين ببلاغته العجيبة.

٢. استخرج علماء النحو والصرف قواعد اللغة العربية من التراث الأدبي للعرب القدماء، سواءً من الشعر او الخطابة او غيرهما، وقد نزل القرآن باللغة العربية، فكانت آياته من أحسن وأبلغ ما تحدث به العرب ومن أجود المصادر لاستخراج قواعد اللغة، وبناءً على ذلك إذا كان هناك ثمة خطإٍ فلنبحث عنه في القواعد المقتبسة لا في القرآن او في تراث العرب، وفي هذا الصدد نلاحظ أن النحويين في الكوفه يختلفون مع النحويين في البصرة اختلافاً كبيراً، حتى عدّوا الكوفة والبصرة مدرستين نحويتين مختلفتين، ونستنتج من ذلك أن قواعد اللغة ليست أمراً مسلّماً.
هذا ابن مالك صاحب الألفية في النحو يجعل القرآن سنداً قطعياً لقاعدة لغوية، يقول:
وسَبْقُ حالٍ ما بحرفٍ جُرَّ قَدْ * أَبَـوا ولا أمنَعُه فَقَدْ وَرَدَ
يعني أنّ بعض النُحاة أبوا أن يأتي الحال سابقاً لذي الحال إذا كان ذو الحال مجروراً بحرف جر، ولكن ابن مالك لا يمنع ذلك لوروده في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ...﴾[٣٥]، فإن (كافّةً) حالٌ من (الناس) و(الناس) مجرورٌ باللام.

ثانياً. نبذةً من الشبهات المذكورة: والباقي على نفس المنوال.
١. قوله تعالى: (اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ)[٣٦]، حيث لم يقل (قريبة) ليوافق التأنيث في الساعة. والامر لا يختص بهذه الآية، قال تعالى:

---

[٣٥]. سبأ:٢٨.
[٣٦]. الشورى:١٧.

* (وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ)[٣٧]، الظاهر أنه كان يلزم أن يقول (رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبةٌ).
* (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ)[٣٨]، لماذا لم يقل (غَيْرَ بَعِيدةٍ).

الجواب:

(١) قال ابن منظور[٣٩]: لأن فعيلاً يوصف به المؤنث بلا علامة تأْنيث كما يوصف المذكر نحو امرأَة قتيل وكفّ خَضيب.

(٢) حكي عن الفراء من أن القرب والبعد إن أُتي بهما لبيان القرابة النسبية وانتفائها لوحظ فيهما التذكير والتأنيث وان اتي بهما لبيان القرب والبعد المكاني او الزماني ولو تجوّزاً لم يلاحظ التذكير والتأنيث، للفرق بين المعنيين ولأن الصفة في الواقع صفة للمكان او الزمان وليس معناه تقدير كلمة مكان ليختل النظم والتركيب بل بمعنى أن تذكير الصفة بلحاظ انها في الواقع للمكان ولو تجوّزا.

٢. قوله تعالى: (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى)[٤٠]، (إنَّ) تنصب الاسم وترفع الخبر، ولذا فإن (الذين) منصوبٌ و(الصابئون) معطوف عليه ومنصوب، فيلزم أن يقال (الصابئين).

الجواب:

(١) قال الخليل وسيبويه: الرفع محمول على التقديم والتأخير، والتقدير إن الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون، والصابئون والنصارى كذلك.

(٢) تفسير الميزان: ظاهرها أن "الصابئون" عطف على "الذين آمنوا" بحسب موضعه، وجماعة من النحويين يمنعون العطف على اسم إن بالرفع قبل مضي الخبر، والآية حجة عليهم.

يلاحظ أن الميزان يشير الى الجواب الرئيسي الذي ذكرنا من أن اللغويين يجب عليهم أن لا يخالفوا القرآن في استخراج قواعدهم النحوية، لا أن القرآن ملزمٌ باتباع قواعد النحويين.

(٣) قال ابن كثير: "والصابئون"، لما طال الفصل حسن العطف بالرفع.

(٤) إعراب الاسم (الذين) غير ظاهر لأنه مبنيٌّ، فيجوز الرفع لمُناسبة الواو في ما قبله (هادوا)، قال الفرّاء: يجوز ذلك إذا كان الاسم ممّا لم يَتبيّن فيه الإعراب كالمُضمر والموصول[٤١] كقول الضابئ البرجمي:

فمَن يكُ أمسى بالمدينةِ رحلُهُ * فإنّي وقيّارٌ بها لغريبُ

حيث رفع (قيّار) لمناسبة الواو قبلها، رغم عطفه على اسم (أنّ) أي ياء المتكلم التي لا يظهر النصب فيها. كما رجّح النَصب على الأصل في آيةٍ أُخرى نظيرتها أيضاً لمناسبة الجِوار، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ...﴾[٤٢] لمُناسبة الياء في (النصارى).

(٥) يجوز في (إنَّ) دون أخواتها أن لا تعمل، قال ابن قتيبة: جواز الرفع في مِثل ذلك إنّما كان لأجل عدم تغيير في مفهوم الابتدائيّة سواء قبل دخول (إنّ) أو بعده، حيث إنّها تزيد معنى التحقيق ولا تزيد معنى آخر سِوى ما كانت الجملة تفيده ذاتاً، ومِن ثَمّ لا يجوز ذلك في المعطوف على اسم (لعلّ) أو (ليتَ) لزيادة معنى الترجّي أو التمنّي في مفهوم الكلام[٤٣].

---

[٣٧]. الأعراف:٥٦.
[٣٨]. ق:٣١-٣٢.
[٣٩]. لسان العرب (١٠٧/٣).
[٤٠]. المائدة:٦٩.
[٤١]. مجمع البيان، ج٣، ص٢٢٤.
[٤٢]. البقرة:٦٢.
[٤٣]. تأويل مشكل القرآن، ص٥٢.

٣. قوله تعالى: ﴿...إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ...﴾[٤٤]، حيث رفع اسم (إن).

الجواب: القراءة المُتّبعة اي قراءة حفص وجمهور المسلمين ذات الإسناد إلى أمير المؤمنين عليه السلام هي بتخفيف (إنْ) بدلاً عن المثقّلة (إنَّ) بدليل وجود اللام في الخبر (لساحران)، وفي هذه الحالة لا تعمل (إنْ) عمل (إنَّ) فيبقى المبتدأ (هذان) مرفوعاً، وكان أبو عمرو بن العلاء ـ وهو أعلم أهل زمانه بالقرآن والعربيّة وآدابها ـ يقول: إنّي لأَستحيي أنْ أقرأ بالتشديد ورفع الاسم، فالخطأ موجّه إلى تلك القراءة المرفوضة (إنَّ المشدّدة) لا الى القرآن.

٤. قوله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ...﴾[٤٥]، نصب (المقيمين) وطرفاه مرفوعان.

ونظيره قوله تعالى: ﴿...وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ...﴾[٤٦]، حيث نصب (الصابرين) مع أنه معطوفٌ على (الموفون) وهو مرفوع.

الجواب:

(١) تغيير الإعراب من النصب الى الرفع او العكس يسمى القطع، ويأتي لأجل المَدح والاختصاص، وهو شائع في اللغة، قال سيبويه في باب ما يُنتصب في التعظيم والمدح: وسمعنا بعض العرب يقول: (الحمد لله ربَّ العالمين) ـ بنصب الربّ ـ فسألت عنها يونس فزعم أنّها عربيّة، قال: ومنها (والمقيمين) و(الصابرين) فقُطع إلى النصب مدحاً[٤٧].

(٢) قال أبو عبيد: يجوز القطع إلى النصب وإلى الرفع تطريةً للكلام وإخراجه عن نسقٍ واحد، تقول الخِرنْق بنت هفّان:

لا يَبعَدن قومي الذين هُمُ * سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ

النازلينَ بكلِّ مُعتَركٍ * والطيّبون معاقِدَ الأُزرِ

فالكلمات (سمُّ) و(آفةُ) و(النازلين) و(الطيبون) معطوفةٌ على بعضها ومرفوعةٌ الا (النازلين) المنصوب[٤٨].

٥. قوله تعالى: ﴿ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً...﴾[٤٩]، أي عشرة أيام، فلماذا قال (عشراً) مع أن اليوم مذكر.

الجواب: ليس التقدير (عشرة أيام) إنّما التقدير في مِثل ذلك عند العرب (عشر ليال) والليال جمع ليلة فهي مؤنث، كما في قولهم: (لخمس بقين أو خَلون من رجب)، والتقدير في حساب الأيّام عند العرب بالليل دون النهار، ولذا يبدأ كلّ شهر بليلة أوّله، فالنهار تابعٌ.

٦. قوله تعالى: ﴿...فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ...﴾[٥٠]، الفعل المضارع (فأَصَّدَقَ) منصوب، وقد أضيف إليه (وأَكنْ) مجزوماً.

---

[٤٤]. طه:٦٣.

[٤٥]. النساء:١٦٢.

[٤٦]. البقرة:١٧٧.

[٤٧]. كان سيبويه يحترم آراء يونس، ويأخذها حجّة، والزَعم هنا بمعنى الرأي والنظر. راجع: كتاب سيبويه، ج١، ص٢٨٨ ـ ٢٩١.

[٤٨]. تأويل مشكل القرآن، ص٥٣.

[٤٩]. البقرة:٢٣٤.

[٥٠]. المنافقون:١٠.

الجواب: (وأَكنْ) معطوفٌ على موضع (فأصّدّق) لو لم تكن فيه الفاء، وموضعه الجزم جواباً لـ (لولا)، وهو من العطف على التوهّم وهو شائع في اللغة، كما في قول الشاعر:
فـأَبلوني بـليّتكم لعلّي * أصالِحُكم وأستدرجْ نَوَيّاً
فجزم (أستدرج) معطوفاً على موضع (أصالحُكم) بتوهّم أنّه لم يكن قبلها (لعلّي)، وكأنّه قال: فأبلوني بليّتكم أصالِحْكم واستدرجْ[٥١].

٧. قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً﴾[٥٢].
أوّلاً لماذا أنّث العدد مع أنّ التمييز مُذكّر، وثانياً لماذا جمع التمييز، والصحيح إفراده هنا.
الجواب: الكلام هنا يتمّ بالعدد من غير ما حاجةٍ إلى ذِكر التمييز، كما في نظائره من قولك: قطّعتُ اللحم أربعاً، أي أربع قطع، وجئناك خمسةً، أي خمسة أشخاص، (وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ)[٥٣] أي بعشر ليالٍ، (فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ)[٥٤] أي عشر حجج، (عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ)[٥٥] أي خازناً.
كلّ ذلك لمعلوميّة المعدود من غير حاجة إلى ذِكره، وكذا هنا، إذ قولك: فرّقتهم اثنتي عشرة، تعني: اثنتي عشرة فِرقةٍ، وحذف ما يُعلم جائز، بل ذِكره إمّا تأكيدٌ أو حشوٌ زائد.
قال المفسّرون: (أسباطاً) بدلٌ من (اثنتي عشرة)، تقديره: وفرّقناهم فِرَقاً أسباطاً وجعلناهم أُمَماً متفرّقة لا مُجتمعة.

٨. قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾[٥٦].
اولاً لماذا قال (نُقَدِّسُ لَكَ)، حيث زاد اللام من غير حاجة إليها، ولعلّ الصواب (نقدّسك) لأنّ الفعل متعدٍّ بنفسه، ثانياً يمكن أن يُقدَّر المفعول به شيئاً من الأشياء، ولكن ذلك يزيد في إبهام الكلام.
الجواب: اولاً قال أرباب اللغة: يقال: (قَدّس الرّجلُ اللهَ)، أي نَزّهه ووَصَفه بكونه قُدُّوساً مُتنزّهاً عن العُيوب والنقائص، ويقال: (قَدَّس لله)، أي طهّر نفسه له، وذلك بأنْ مهّدها لإمكانِ الاستفاضةِ من أنوار الملكوت.
كانت الملائكة ترى من بني آدم ذواتاً منكدِرة لا تصلح للاستجلاء بجلاءٍ يَليق بمقام القُدس الأعلى، فعرضت نفسها، لكنّه تعالى أعلم بالمصالح فيما يُقدّر ويُدبّر، (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ).
ثانياً على فرض التقدير في الكلام فإنّه لا إبهام فيه، قال الراغب: (وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ) أي نُطهّر الأشياء لك[٥٧]، أي بدلاً من بني آدم المُفسدين في الأرض نقوم نحن بتطهير الأشياء وتصقيلها إلى حيث الصفاء والجَلاء التامّ، الأمر الذي يتحقّق منه الامتثال التامّ لما أراده تعالى من الطهارة والنزاهة في خليقته جمعاء.

٩. قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾[٥٨].
يبدو أنه كان ينبغي أنْ يقول: (ثُمّ قال له كنْ فكان).

---

[٥١]. راجع: تأويل مشكل القرآن، ص٥٦.
[٥٢]. الأعراف:١٦٠.
[٥٣]. الأعراف:١٤٢.
[٥٤]. القصص:٢٧.
[٥٥]. المدّثر:٣٠.
[٥٦]. البقرة:٣٠.
[٥٧]. المفردات، ص٣٩٦.
[٥٨]. آل عمران:٥٩.

الجواب: قال الشيخ مُحمّد عَبده: يجوز أن تكون كلمة التكوين مجموع (كن فيكون). والمعنى: ثُمَّ قال له كلمة التكوين التي هي عبارة عن توجّه الإرادة إلى الشيء ووجوده بها حالاً، قال: ويظهر هذا في مِثل قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ)[٥٩].
فمعنى قوله (كن فيكون): أنْ لا فاصل زمنيّاً بين إرادته تعالى وتكوين الشيء، (وَمَا أَمْرُنَا إِلاّ وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ)[٦٠]، (إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[٦١].
قال الحجّة البلاغي: (فيكون) فعل مضارع دالّ على الثبوت، لبيان الملازمة الدائمة بين قوله (كن) وبين تكوّن الشيء بهذا الأمر لا محالة، وبهذه القُدرة التامّة والمُلازمة الدائمة خُلق عيسى من غير فَحل، إذ قال له: (كن). وهذا بخلاف ما لو قال: (كن فكان) لأنّ هذا الأُسلوب (الثاني) لا يُفيد إلاّ أنّ آدم كان، سواءٌ أكان ذلك باتفاق أم بملازمة خاصّة بذلك الكون أو عامّة، وهو أمرٌ معلوم لا فائدة في بيانه ولا حجّة فيه على خَلق عيسى من غير فحل، فلا يكون التفريع لو قيل: كن فكان، إلاّ لغواً في كلام متهافت[٦٢].

[١٤]

١٠. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً﴾[٦٣].
قيل: كان الصواب أنْ يقول: (وكان قدّامهم...).
الجواب: إنّ كلمة (وراء) في هكذا موارد من استعمالاتها يُراد بها: الكارثة الخطيرة التي تَتَعقّبهم في مسيرة الحياة، والمعنى أنّهم سائرون لاهينَ، وتلاحقهم داهيةٌ دَهماءٌ تسعى وراءهم للنيل منهم وهم غافلون عنها، وهو مِن ألطف الكنايات، فكان قول المفسّرين: (أمامهم) هو لازم المعنى ولم يُريدوا ترجمة الكلمة.
واستعمل في الآيات التالية:
(١) وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ[٦٤].
(٢) مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئاً[٦٥].
(٣) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ[٦٦].
(٤) وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ[٦٧].
(٥) وفي الشعر الجاهلي، قال لبيد: أَليسَ ورائي إنْ تراختْ مَنيّتي * لُزُومُ العَصا تُحنى عليها الأَصابعُ
قوله: أَليسَ ورائي، أي أَليس يتعقبني لزوم العصا؟ والمعنى أني اذا كبرت بالسن مسكت العصا في المشي.
وقال المرقش كناية عن الانتظار: ليسَ على طولِ الحياة ندمُ * ومِن وراء المرء ما لا يعلمُ[٦٨].

١١. قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾[٦٩].
لماذا لم يقل (سيناء) كما جاء في آيةٍ أخرى: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ)[٧٠].

---

[٥٩]. تفسير المنار، ج٣، ص٣١٩، والآية في سورة الأنعام:٧٣.
[٦٠]. القمر:٥٠.
[٦١]. يس:٨٢.
[٦٢]. الهدى إلى دين المصطفى، ج١، ص٣٨٠.
[٦٣]. الكهف:٧٩.
[٦٤]. المؤمنون:١٠٠.
[٦٥]. الجاثية:١٠.
[٦٦]. إبراهيم:١٦.
[٦٧]. إبراهيم:١٧.
[٦٨]. راجع: الهدى إلى دين المصطفى، ج١، ص٣٥٢.
[٦٩]. التين:٢.
[٧٠]. المؤمنون:٢٠.

الجواب: استعمل العهد القديم هذه الكلمة بكلا الوجهَين: كانت البريّة التي خَرَجَ إليها بنو إسرائيل - بعد اجتيازهم بحر سوف (البحر الأحمر) ومنطقتي شور وإيليم - تُسمّى بريّة (سين) والتي تنتهي إلى جبل سيناء.
جاء في سِفر الخروج: (ثُمّ ارتحلوا من إيليم وأتى كلّ جماعة بني إسرائيل إلى برّية سين التي بين إيليم وسيناء)[٧١]، وسِيناء - بكسر السين - اسم جبل (حوريب)[٧٢]، وعبّر عنه بسينيم أيضاً، كما أنّ الوادي كلّه سُمّي بسيناء[٧٣] وسينيم باعتبار فخامة هذا الجبل الواقع فيه، جاء في سِفر إشعياء: (هؤلاء من بعيد يأتون وهؤلاء من الشمال ومن المغرب وهؤلاء من أرض سينيم)[٧٤]. قال جيمس هاكس: فَسَّره جماعة بوادي (سين) و(سيناء)، نظراً للمناسبة القريبة الملحوظة في عبارة الكتاب[٧٥].
ومِن المُحتمل أنّ (سينيم) جمع (سين) باعتبار أنّ الجمع في العِبريّة يأتي بالياء والميم، كما في (جَمَليم) و(حَمُوريم) و(رَكْبيم) جمع (جَمَل) و(حَمُور) و(رَكْب)[٧٦]، وعليه فقد أتى القرآن بسينين جمعاً بالياء والنون على النهج العربي.

١٢. قوله تعالى: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾[٧٧]، إن كانت الريح مؤنثاً فلماذا يقول: (عاصف) لا (عاصفة).
الجواب: الرّيح مؤنّث، وتُوصف بعَاصف وعاصفة على سواء، لأنّ العاصف صفة الريح، فلا تشتبه بغيرها فلا حاجة إلى التاء الفارقة، كما تقول: امرأة حائض او حامل او مرضع.
قال ابن منظور: وهي ريح عاصف وعاصفة.
واستعمل القرآن الوجه الآخر ايضاً: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً)[٧٨].

١٣. قوله تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[٧٩]، زَعَموا أنّ الحنيفيّة هي الميل عن الصراط السويّ.
الجواب: الحنيفيّة مِن الحَنف هي النزاهة والقداسة إنْ فكريّاً أو عمليّاً، وِفق الفطرة الأُولى.
قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ)[٨٠]، وفي الحديث: سُئل عن الحنيفيّة؟ قال: هي الفطرة[٨١].
قال الراغب: الحَنف، هو مَيل عن الضلال إلى الاستقامة، والجَنَف، ميل عن الاستقامة إلى الضلال، كما في قوله تعالى: (فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أَوْ إِثْماً)[٨٢]، أي ميلاً عن الحقّ، والحنيف المائل إلى الاستقامة، قال تعالى: (قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً)[٨٣]، وجَمعه: حنفاء، قال تعالى: (وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لِلَّهِ)[٨٤].

---

[٧١]. سِفر الخروج، ١/١٦.
[٧٢]. راجع: قاموس الكتاب المُقدّس، ص٤٩٨ مادة (سيناء).
[٧٣]. راجع: سِفر الخروج، الإصحاح١٩/١: (جاؤوا إلى بريّة سيناء فنزلوا في البرّية، هناك نَزَل بنو إسرائيل مقابل الجبل) وفي الإصحاح١٩/١٨: (فوقفوا في أسفل الجبل، وكان جبل سيناء كلّه يُدخّن من أجل أنّ الرّبّ نَزَل عليه بالنار).
[٧٤]. سفر إشعياء، الإصحاح١٢/٤٩.
[٧٥]. قاموس الكتاب المُقدّس، ص٥٠٤.
[٧٦]. راجع: الرحلة المدرسيّة، ج١، ص٧٤-٧٥.
[٧٧]. يونس:٢٢.
[٧٨]. الأنبياء:٨١.
[٧٩]. البقرة:١٣٥.
[٨٠]. الروم:٣٠.
[٨١]. بحار الأنوار، ج٣، ص٢٧٦.
[٨٢]. البقرة:١٨٢.
[٨٣]. النحل:١٢٠.
[٨٤]. الحج:٣٠و٣١.

قال: وتَحنّف فلانٌ أي تحرَّى طريق الاستقامة، وسمَّت العربُ كُلَّ مَن حجّ أو اختَتَن: حنيفاً، تنبيهاً أنّه على دين إبراهيم عليه السلام. وهكذا ذَكَر الفيروز آبادي في القاموس، قال: الحَنَف - محرّكة - الاستقامة.

ثالثاً. الالتفات وتنوّع الكلام:

ممّا أُخذ على القرآن: عدم نَسجه على منوالٍ واحد، فهناك ظاهرة الالتفات وتنوّع الخطاب والانتقال والرجوع والقطع والوصل، وأمثال ذلك من التنقّل الكلامي، زَعَموا أنّه قد يُشوّش على القارئ فهم المعاني.

الجواب:

١. تطريةً الكلام: هذا من أساليب البديع في كلام العرب، فما الالتفات والتنقّل في الخطاب إلاّ تطريةٌ في الكلام، تزيد في نشاط السامعين وتسترعي انتباههم لفهم مناحي الكلام أكثر وأنشط. (طرَّاه: جعله طريّاً).

٢. صياغة الكتاب وصياغة الخطاب: إنّ لصياغة الكتاب مُمَيزّات تختلف عن مُمَيّزات صياغة الخطاب، فقضيّة الجري على منوالٍ واحد هي خاصّة بصياغة الكتاب، أمّا التنوّع والتنقّل والالتفات فهي من خاصّة صياغة الخطاب، سواء أكان نَظماً أم نَثراً، فلا يتقيّد الناطق بالاطّراد في سياقٍ واحد، بل له الانتقال والتحوّل أثناء الكلام حسبما ساقته دلائل المقام.

٣. القرآن صياغة خطاب: القرآن كلام الله، واجه به عباده في صياغة خطاب ولم ينزل في صياغة كتاب، ومِن ثَمَّ كانت فيه هذه الكثرة من الالتفات والتنقّل في الكلام، الأمر الذي زادَ في طراوته وزانَ في طُلاوته.

٤. أمثلة:

(١) يقول تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً)[٨٥]. يبتدئ الكلام بالخطاب مع الرسول ويتحوّل مِن فوره إلى مواجهة المؤمنين، ثُمَّ الضمائر المتتابعة الثلاثة (وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ) يعود الأوّلان منها إلى النبيّ والثالث إلى الله، وهذا من مداورة الكلام مِن وِجهةٍ إلى وِجهة، ويُعدُّ من أَلطف صُنع البديع.

(٢) ينقل القرآن كلام عزيز مصر حينما واجه امرأته على حالة استنكرها فقال: (يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ)[٨٦]، فيُخاطب يوسف أوّلاً، ثُمَّ يَلتفت إلى امرأته يُوبّخها، فهما خطابان في واجهتَين.

٥. التأكيد والمبالغة: بديعة الالتفات كانت غرّة البدائع التي ازدان بها كلام ربّ العالمينَ، قال تعالى: (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ * هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ[٨٧].

يشير في الآية الأولى الى أنّ أُولئك الكَفَرة الجُحُود إذا كشف الله عنهم ضرَّهم، كفروا بنعمة الله بدلاً من أنْ يشكروا، بل حاولوا تغطيتها بأنواع الملتبسات.

ثم يُمثّل لذلك في الآية الثانية بركوبهم البحر ومواجهة الطوفان، فبدأ مواجهتهم بالخطاب، لكنّه في الأثناء غيّر وِجهة الكلام إلى التكلّم عن غائبين، ليُحوّل وِجهة السامعين من كونهم مخاطبينَ إلى كونهم ناظرينَ

---

[٨٥]. الفتح:٨-٩.

[٨٦]. يوسف:٢٩.

[٨٧]. يونس:٢١-٢٣.

مستمعين، وذلك للتمكّن في نفوسهم من استقباح ما يشهدونه من فضيع الحال وشنيع المَآل، فيلمسوا قَباحة العمل وهم يرونه مِن كَثَب، فيكونوا هم الحاكمينَ على فعالهم بالتقبيح، وذلك لأنّ القبيح من الغير يبدو أقبح ممّا لو ذُكر عن النفس.

٦. التنقل من موضوع الى موضوع: قد يتنقّل المتكلّم من موضوعٍ إلى موضوع آخر، ثُمّ يعود إلى موضوعه الأوّل حَسبَما يقتضيه الحال والمقام، والتنقّل ظاهرة قرآنيّة شاملة ولا سيّما في السور الطوال. مثلاً نراه يتعرّض لمسألة الطلاق والعدة في الآيات (٢٢٨-٢٣٧)[٨٨] من سورة البقرة، وينتقل إلى الترغيب في المحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى في الآية (٢٣٨)[٨٩] وصلاة الخوف في الآية (٢٣٩)[٩٠] ويَذكر المُتوفّى عنها زوجها في الآية (٢٤٠)[٩١] ثُمَّ يعود إلى ذكر المطلّقات في الآية (٢٤١)[٩٢] الأمر الذي لم يكن متناسباً لو كان الكلام كتاباً، ويجوز في الخطاب، وهذا أيضاً في القرآن كثير.

[١٥]

رابعاً. موارد زَعَموا فيها مخالفات في عَودِ الضمير: إليك بعض الكلام في ذلك:

١. تغليب جانب ذوي العقول: جرت العادة عند العرب وجرى عليها القرآن على تغليب جانب الذُكور، وكذا جانب ذوي العقول إذا كانوا في الجمع.

قال تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ...)[٩٣].

عاد ضمير التأنيث في (كُلَّهَا) على الأسماء باعتباره جمع تكسير، ثُمّ عاد عليها ضمير الجمع المُذكّر في (عَرَضَهُمْ)، ثُمّ جاء اسم الإشارة (هَؤُلاء) أيضاً بصورة الجمع المُذكّر.

الجواب: عَود الضمير المُذكّر إلى الأسماء في الآية إنّما هو باعتبار المُسمّيات دون نفس الأسماء، وبما فيها من ذَوي العقول فغُلِّب جانبهم، فقال (عَرَضَهُمْ)، وقال (أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ)[٩٤].

٢. الاستعارة التخييليّة:

وهي من أَجود أنواع الاستعارات، يُضمَر في النفس تشبيهُ شيء بشيء، ثُمّ يُذكر أحد طَرَفَي التشبيه وتُذكَر له صفةٌ من صفات الطرف الآخر، لتكون دليلاً على ذاك التشبيه المُضمر في النفس، مثلاً: تُشبّه المنيّة أي الموت بسَبُعٍ ضارٍ مُفترس، ولا يُصرَّح بهذا التشبيه، بل يُذكر للمنيّة التي هي المشبَّه أظفار السَبُعِ الضاري:

وإذا المَنيّةُ أَنشبتْ أظفارَها * أَلفيتُ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

وفي القرآن من هذا النوع من الاستعارة كثير، من ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ)[٩٥]، فقد جاء بجمع التذكير.

الجواب: حيث شُبّهت الأشياء بمَن يَلهج بالتسبيح مِن إنسٍ وجنٍّ ومَلَكٍ، فاستُعير لفظ التسبيح الذي هو فعل ذوي العقول، ثُمّ جرى الكلام على هذا النَمط فقال: (تَسْبِيحَهُمْ) بضمير الجمع المُذكّر الخاص بذوي العقول.

---

[٨٨]. وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ... (٢٢٨) الطَّلاقُ مَرَّتَانِ... (٢٢٩) فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ... (٢٣٠) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ... (٢٣١) وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ... (٢٣٢) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ... (٢٣٣) وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ... (٢٣٤) وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ... (٢٣٥) لا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ... (٢٣٦) وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ... (٢٣٧).

[٨٩]. حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ (٢٣٨).

[٩٠]. فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٣٩).

[٩١]. وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤٠).

[٩٢]. وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤١).

[٩٣]. البقرة:٣١.

[٩٤]. راجع: مجمع البيان، ج١، ص٧٧، ومعاني القرآن، ج١، ص٢٦، والكشّاف ج١، ص١٢٦.

[٩٥]. الإسراء:٤٤.

٣. مُثنّى يُراد به الجمع:
كثيراً مّا تُثنّى ألفاظٌ يُراد بالواحد منها الجمع دون الفرد الحقيقي، ولذلك قد يعود عليه بضمير الجمع نظراً إلى المعنى، فاللفظ وإن كان مُثنّى لكن يُراد به الجمعان، وهما معاً جمعٌ لا محالة.
من ذلك قوله تعالى: (هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ)[٩٦]، حيث المراد بالخصمَين جماعة الكفّار وجماعة المؤمنين، حيث التخاصم بين الفريقين قائمٌ على ساقٍ، وضمير الجمع في (اخْتَصَمُوا) يعود الى مجموع المؤمنين والكفار، ولذلك تعقّبت الآية بقوله: (فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ... إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ)[٩٧].

٤. جمعٌ يراد به الاثنان فما فوق:
قد يُعبّر بلفظ الجمع ويُراد به الجمع العرفي الصادق من اجتماع اثنين فما فوق، كما في ضمير المتكلم، وهذا شائعٌ في سائر اللغات، والعرب قد تستعمل ذلك نظراً للمعنى اللغوي للجمع الصادق مع الاثنين.
قال الطبرسي: والعرب تُسمّي الاثنين بلفظ الجمع في كثير من كلامهم، قال تعالى: (وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ)[٩٨]، يعني حكم داود وسليمان[٩٩].
وفي كتاب (إعراب القرآن)، قوله تعالى: (فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ)[١٠٠]، أجمعت الأُمّة على أنّ الأخوين يحجبان الأُمّ من الثُلث إلى السُدس بدلالة الآية[١٠١].

٥. يجوز في جماعة غير ذوي العقول اعتبار جمع التأنيث:
قال تعالى: (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ)[١٠٢]، والأيام جمع تكسير لـ (يوم) وهو مُذكّر.
جاء وصف الأيّام بجمع المؤنّث السالم (بالألف والتاء)،
قال أبو حيّان الأندلسي: و(نحسات) صفة لأيّام، جُمع بألفٍ وتاء، لأنّه جمع صفة لِما يَعقل[١٠٣].
قال الزمخشري: في قوله تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ)[١٠٤]، الضمير في (خلقهنّ) للّيل والنهار والشمس والقمر، لأنّ حكم جماعة ما لا يعقل حكم الأُنثى أو الإناث، يقال: الأقلام بَرَيْتُها وبَرَيتُهُنّ[١٠٥].

---

[٩٦]. الحجّ:١٩.
[٩٧]. الحجّ:١٩-٢٣.
[٩٨]. الأنبياء:٧٨.
[٩٩]. مجمع البيان، ج٣، ص١٥.
[١٠٠]. النساء:١١.
[١٠١]. راجع: ملحق الكتاب، ص١٠٩٦-١٠٩٩.
[١٠٢]. فصّلت:١٦.
[١٠٣]. البحر المحيط، ج٧، ص٤٩١.
[١٠٤]. فصّلت:٣٧.
[١٠٥]. الكشّاف، ج٤، ص٢٠٠.

خامساً. النسخ في القرآن: يعترض ايضا بوقوع النسخ في القرآن، وقد قال تعالى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا...)[١٠٦] وقال ايضا (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)[١٠٧].

الشبهة: النسخ معناه تغيير الآية او تصحيحها او تبديل مضمونها ومهما كان فهو من الاختلاف والتغيير، ولا يُعقل أن يغير الله تعالى رأيه.

الجواب:

١. ما هو النسخ: النسخ هو تغيير الحكم بتغير الظروف، أي أن حكماً صدر من الشارع المقدس وكان يبدو عليه كأنه دائمي ولكن الله تعالى لم ينزله ليبقى الى الأبد بل جعله مؤقتاً لأجلٍ معين، ولكن المصلحة اقتضت أن لا يخبر الله المكلفين أنه حكمٌ مؤقت، فلما جاء الحكم الناسخ تبيّن للناس أن الحكم السابق كان مؤقتاً.

٢. سبب النسخ: ليس النسخ بمعنى تبدل الرأي ولا تغيير الآية، وليس من بروز ضعف في القانون كما يحصل ذلك في التشريع البشري وانما كان يحصل بسبب تبدّل احوال المجتمع، فقد أنزل القرآن على المجتمع البدوي الغارق في المفاسد الاجتماعية، وفي القرآن احكامٌ شرعية من رب العالمين تطهر نفوسهم وتزكيها، ولكن هذا الامر لا يمكن ان يتحقق في يوم وليلة فالمجتمع لا يتقبل إزالة كل تلك الشوائب الموروثة من الآباء والاجداد فجأة، حتى ان كثيرا من السنن الجاهلية رفعها القران الكريم في المدينة أي بعد تكامل المجتمع الاسلامي وتعاضده وتأسيس حكومته، ولم يكن بالإمكان محاربتها في أوائل الامر بمكة.

٣. التدرّج: كان لابد من التدرّج في نزول الاحكام وتبليغها، وكان لابد من ملاحظة الظروف لبيان الحكم، كما أن التدرج سرى في التعبير أيضاً، فنجد تحريم الخمر مثلا - والقوم مولعون به - ينزل بالتدرج كالتالي:

(مقارنة إثم الخمر بنفعه): قال تعالى في سورة البقرة وهي من اوائل ما نزل في المدينة (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا)[١٠٨].

فهنا يشير الى انه اثم وان اثمه كبير لان الخمر محرّم في جميع الاديان وليس مما نسخ فيه الحكم وانما تدرّج بيانه لئلا يصعب على المجتمع قبوله.

(تنافر الصلاة من الخمر): ثم نزل في سورة النساء الابتعاد عن الصلاة حال السكر قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ)[١٠٩].

(التحريم الكامل للخمر): ثم نزل في سورة المائدة التشديد في البيان قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[١١٠].

٤. نسخ الأسهل بالأصعب: هناك أحكام تغيّرت من الأسهل الى ما هو أصعب، أي تم نسخ الحكم السهل وتبديله بحكم أصعب منه، مثال ذلك قوله تعالى (وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا)[١١١]، فان قوله تعالى (او يجعل الله لهن سبيلا) اشارة الى تغير الحكم الى الجلد في قوله تعالى (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ)[١١٢].

---

[١٠٦] البقرة: ١٠٦
[١٠٧] النحل: ١٠١
[١٠٨] البقرة: ٢١٩
[١٠٩] النساء: ٤٣
[١١٠] المائدة: ٩٠- ٩١
[١١١] النساء: ١٥
[١١٢] النور: ٢

٥. نسخ الأصعب بالأسهل: ولكن ليس التغيير دائما من الاسهل الى الاصعب فهناك احكام تغيرت من حرمة الى اباحة او من وجوب الى عدمه، وهذا ايضا انما حصل تبعا للظروف المؤاتية لتغيير الحكم، أي أن الحكم الأصعب كان ينسخ ويتبدل بحكم أسهل.

٦. متى يمكن حدوث النسخ: لا يحكي النسخ عن تبدل في الراي بل يحكي عن تغيّر في المجتمع بحيث يقتضي تغيير الحكم ليناسب الوضع الجديد، ولكن التغيير لا يستمر الى ما بعد عهد الرسالة لانتهاء التشريع بوفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى الناس متابعة ما شرّع في عصر الرسالة الى الابد.

٧. أنواع النسخ: ذكر أهل السنة ثلاثة أنواع من النسخ، ونحن لا نقبل منها الا النوع الثالث، وإليك إياها:

النوع الأول: نسخ التلاوة وإبقاء الحكم: المراد بهذا النوع من «النسخ» أن تنزل آيةٌ على النبي صلى الله عليه وآله ثم «تنسخ» تلاوتها ونصها اللفظي ويبقى سارياً مفادها اي ما اشتملت عليه من حكم.

وكمثالٍ لهذا النوع من «النسخ»، يروون عبارةً عن الخليفة الثاني في «الرجم» هذا نصها: **«الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتّة نكالاً مِنَ الله والله عزيز حكيم»**.

يقال أنه كانت آيةٌ في القرآن الكريم نسخت تلاوتها وظل حكمها باقياً. ولكننا لو درسنا القرآن بصورةٍ موضوعية ومتواصلة، لما بقى لنا شكٌّ في بطلان ذلك وعدم ثبوته في القرآن، لأن هذه الروايات وصلت الينا عن طريق الآحاد فقط، وقد اجمع المسلمون على عدم صحة «النسخ» بالروايات الآحاد، ولا يحق لنا قبول مثل هذا النسخ، يضاف الى ذلك أن طبيعة هذه الأمور تقتضي شيوع امور هامة بين الناس ونسخ آيةٍ من القرآن ايضاً كذلك، فكيف إذن حُصِرت رواية «النسخ» بالآحاد؟!. والغريب أن أبناء القرآن بنفسه أي ائمة اهل البيت عليهم السلام لا علم لهم بذلك.

النوع الثاني: نسخ التلاوة والحكم معاً:

المقصود من هذا النوع أن آيةً قرآنيةً كانت موجودةً في برهةٍ زمنيةٍ معينة خلال ايام نزول الشريعة واستقرارها، ثم نسخت التلاوة ونسخ المضمون معاً. وكمثالٍ لهذا النوع يروون عبارات عن عائشة في الرضاع، وهي كما يلي:

«ومما نزل من القرآن أنه: **«وعَشَرَ رَضَعاتٍ يُحَرِّمْنَ»**، ثم نسخت بنزول **«خمس معلوماتٍ»**.

ولا يوجد في القرآن اليوم أي من الآية الناسخة او المنسوخة، مما يعني أن تلاوة الآية قد نسخت. ويواجه هذا النوع من النسخ ايضاً الشبهة الواردة على النوع الأول، وبالتالي هو باطل إذن.

النوع الثالث: نسخ الحكم وابقاء التلاوة: هذا هو المراد اساساً من ظاهرة النسخ لا غير، وهو أن النسخ يتعلق بالمضمون أي بحكم الآية المنسوخة مع إبقاء نص الآية كما كان، هذا النوع من النسخ هو الذي اشتهر بين العلماء وابتدره المؤلفون في الناسخ والمنسوخ نقداً وتحقيقاً وتدويناً، حتى خصصوا كتباً فيه بالذات، كما انكره بعض الباحثين الإسلاميين طوال التاريخ.

يحدث هذا النوع من النسخ بإحدى الصورتين التاليتين:

(١) نسخ حكم ثابتٍ في القرآن الكريم بسنّةٍ نبويةٍ متواترة، او باجماع كامل يدل على صدور النسخ من المعصوم أي من صاحب الشريعة صلى الله عليه وآله.

(٢) نسخ حكمٍ ثابتٍ في القرآن الكريم بآيةٍ أخرى من القرآن.

سادساً. عدم نزول القرآن دفعة واحدة:

الشبهة: لو كان القرآن كتاباً سماوياً متضمناً لدين يريده الله من الناس وقد بعث رسولا يبلغه الناس لكان هذا الدين تامة أجزاؤه معلومة أصوله وفروعه مجموعة فرائضه وسننه وكان الكتاب المشتمل عليه منظمة أجزاؤه، مركبة بعضه على بعض.

وليس كذلك بل هو أقوال متفرقة يأتي بها في وقائع مختلفة وحوادث متشـــتتة ربما وقع واقع فأتى عند ذلك بشيء من الكلام مرتبط به يسمى جملها المنضودة آيات إلهية ينسبها إلى الله ويدعي أنها قرآن منزل إليه من عند الله سبحانه.

الجواب: قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا[١١٣].

١. ترســخ المعارف عند الحاجة: هناك فرق بين أن يلقى الطبيب المعلم مثلا مســألة طبية إلى متعلم الطب إلقاء فحسب، وبين أن يلقيها إليه وعنده مريض مبتلى بالداء وهو يعالجه فيطابق بين ما يقول وما يفعل. ومن هنا يظهر أن أفضـــل وقتٍ لالقاء أي فكرة علمية إلى المتعلم هو وقت العمل وعند الحاجة، فيكون أثبت في النفس وأكمل رسوخا في الذهن وخاصة في المعارف التي تهدي إليها الفطرة، فإن الفطرة إنما تستعد للقبول إذا أحست بالحاجة.

٢. أحسن التعليم بالتدريج: فأحسن التعليم هو أن تلقى المعارف الاسلاميه بالتدريج، موزعة على الحوادث الواقعة المتضـــمنة لأنواع الحاجات، مبينة لما يرتبط بها من الاعتقاد الحق والخلق الفاضـــل والحكم العملي المشروع مع ما يتعلق بها من أسباب الاعتبار والاتعاظ بين قصص الماضين وعاقبة أمر الظالمين.

وهذا هو المراد بقوله تعالى: (كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلا)، ومعنى الآية: نزلنا القرآن كذلك، أي نجوما متفرقة لا جملة واحدة من أجل أن نثبت به فؤادك. فقوله: "كذلك لنثبت به فؤادك" بيان تام لســـبب تنزيل القرآن نجوما متفرقة.

ويبقى عليه شـــيء: وهو أن اتصـــال أجزاء العلم الواحد بعضـــها ببعض إمداد للذهن وتهيئة للفهم، أما تفرق أجزاء التعليم عند إلقائها إلى المتعلم يفسد غرض التعليم لانقطاع أثر السابق إلى أن يلحق به اللاحق.

وجواب ذلك: قد أجاب تعالى عنه بقوله: "ورتلناه ترتيلا" فمعناه أن هذه التعليمات النازلة نجوما متفرقة قد نزلنا بعضـها إثر بعض بحيث لا تبطل الروابط فلا يفسد غرض التعليم، فهي سور وآيات نازلة بعضـها أثر بعض مترتبة مرتلة[١١٤].

التدريج في إجابة الشبهات: كان الموافقون والمخالفون تشكل عليهم الأمور، وتلتبس عليهم المعارف والحكم الواقعة في الملل والاديان الســـابقة وما فســـرها به علماؤهم بتحريف الكلم عن مواضـــعه، فيعترضـــون ويشـككون، وهذا النوع من الاحتجاج والبيان لا يستوفى حقه إلا بالتنزيل التدريجي على حسب ما كان يبدو من شبههم ويرد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مسائلهم تدريجا.

الإخبار عن حقائق الكون

ذكر الكثيرون وجهاً آخر من وجوه إعجاز القرآن وهو الإخبار عن حقائق الكون مما لا يعلمه الناس في ذلك العصـر، مما ألزم المفسـرين القدماء بالتأويل والتوجيه الى ان انكشـف الامر وتبيّن انه هو الحق، ولكن قبل الإشارة الى بعض ما قيل في هذا المجال، يلزم ذكر بعض الملاحظات.

أولاً. ملاحظات:

---

[١١٣] الفرقان:٣٢.

[١١٤] رتِل الكلامُ :تناسَق، انتظم وحسُن تأليفُه.

١. كتبٌ ألفت في هذا المجال: أُلّفت كتب وتفاسير تشير الى أن القرآن قد ذكر العديد من الحقائق المكتشفة في العلم الحديث، ولكن الغالب عليها حمل آيات القرآن على ما توصّل اليه البشر من العلم، وكثير منها لا يخلو من تكلف فلا يمكن قبوله بل يلزم رفضه في أكثر الحالات.

٢. التطبيق على نظريات مرفوضة: وقد طبقوا بعض الآيات القرآنية على نظريات تم رفضها بعد ذلك، مثل النظرية السديمية nebular hypothesis، للعالم الفرنسي بيير لابلاس Pierre de Laplace، والذي حاول في القرن التاسع عشر تفسير نشأة المجموعة الشمسية، ومفادها أن أصل الكواكب سديم هائل، انخفظت حرارته فانفصلت عنه حلقات كونت الكواكب وبقيت الشمس ممثلة لمركز السديم.

السّديم: هو تَكَاثُفُ أوْ تَجَمُّعُ نُجُومٍ بَعِيدَةٍ تَظْهَرُ وَكَأَنَّهَا سَحَابَةٌ خَفِيفَةٌ، أوْ بُقَعٌ ضَعِيفَةُ النُّورِ، كَمَا يَتَكَوَّنُ السَّدِيمُ مِنْ غَازَاتٍ مُضِيئَةٍ شَدِيدَةِ الحَرَارَةِ، تَدُورُ حَوْلَ نَفْسِهَا.

فأعلنوا أن هذه النظرية مذكورة في الآية التالية من القرآن: أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا... (الأنبياء:٣٠)، (شَيْءٌ رَتْقٌ: مَسْدُودٌ، مُلْحَمٌ، فَتَقَ الشيءَ: فَصَلَ أَطْرَافَهُ عَنْ بَعْضِهَا).

غير أن التقدم العلمي والاكتشافات الحديثة أثبتت عدم صحة هذه النظرية في تفسير كثير من الظواهر الكونية، وقد وافقوا عليها جزئياً بعد ان غيّروا فيها الكثير.

إلا أن مؤيدي الإعجاز العلمي للقرآن حوّلوا الآية الى نظرية الانفجار العظيم، رغم أنها ايضاً مجرد نظرية لا إثبات لها ولا يعلم متى يحين وقت الرد عليها.

لم يلاحظ هؤلاء أن كلمة (سماوات) لا تعني النجوم ولا حتى المجرات، بل هي حياة ما وراء الطبيعة ولا علاقة لها لا بنظرية لابلاس ولا نظرية الانفجار الكبير.

٣. لم يأت القرآن لكشف حقائق المادة: ليس القرآن مكاناً لكشف الحقائق العلمية، وذلك لأمرين:

الأول أنه ليس القرآن كتاباً للعلوم الحديثة: ليس من شأن القرآن الإخبار عن حقائق الكون، لأن القرآن ليس كتاباً علميا بحتًا كما يتصوره البعض، حتى نجد فيه كل ما نشاء من الحقائق العلمية في شتى الميادين مثل الفيزياء والأحياء والجيولوجيا وأمثالها.

الثاني أنه لم يسبق العالم في هذا المجال ولا مرة: لو كان القرآن قد أشار الى كل تلك الاكتشافات العلمية فلماذا لم يأتوا بواحدةٍ منها قبل أن يتعرف عليها علماء العصر، فيعلنوا مثلاً أن النظرية الفلانية قد تم كشفها من القرآن ثم يقوم العلماء بالتحقيق فيها ويتأكدون من صحتها.

٤. القرآن كتاب هداية: القرآن كتاب هداية للإنسان، حتى يعلم الإنسان لماذا خُلِق وما هو دوره في هذه الحياة، وما سيكون حاله وما ينتظره بعد موته. فهو كتاب علمي للسلوك البشري والأخلاق والمعاملات.

يقول تعالى: (ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ)[١١٥].

ويقول أيضا: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا)[١١٦].

٥. وجه آيةٍ من الإعجاز في ذلك: إن كتب العلماء القدماء حتى الكتب السماوية المحرفة مليئة بأقوال وافكار سخيفة حينما يتعرضون لحقائق الكون الغامضة، ولو كان الكتاب من عند غير الله لوُجِد فيه ضعف شديد من هذه الجهة ايضا ولذا يمكن ان نعتبر ذلك من وجوه إعجاز القرآن وذلك من جهتين:

الأولى: ان القرآن لا يتعرض لبيان حقائق الكون والعلوم الطبيعية وما يرتبط بجسم الانسان وغيره، لان البشر يتطور ويتكامل علمه والقرآن لا يمكنه ان يبين الحقيقة الكاملة لان البشر لا يعرفها فيستغرب وجود

---

[١١٥] البقرة:٢.

[١١٦] الإسراء:٩.

ذلك في كتاب الله، فلو كان القرآن يصـــرّح مثلا بان الارض كروية او ان الليل والنهار يحدثان بحركة الارض لا بحركة الشمس، كان البشر في ذلك العصر يرى ان هذا خلاف الواقع الذي يعرفه، فكان يشكل نقطة سلبية في الكتاب.
الثانية: أشار القرآن الى بعض الحقائق العلمية بصورةٍ غير صريحة، حتى يتمكن القدماء تأويله حسب ما يرونه صحيحاً فلا يشكوا في الكتاب، وبقيت تلك الأمور مبهمة الى أن اكتشفها علماء العصر الحاضر، ولكن يجب التأنّي في تطبيق الآيات بكل دقةٍ وموضوعية، لأن هذا ليس المجال الأساسي الذي يريد القرآن أن يثبت أصالته الإلهية به، فلو رفضنا جميع الحالات ايضاً لما تسرّب الشك الى كتاب الله المجيد.

[١٧]

ثانياً. بعض ما ذكروه من الإعجاز العلمي للقرآن في السماء:
١. نشأة الكون: كان الاعتقاد السائد عن الكون منذ القدم حتى بداية القرن ١٩ بأن الكون سرمدي بلا بداية أو نهاية، إلى أن برزت نظرية الانفجار العظيم لتؤكد بأن كوننا في ثوانيه الأولى، منذ حوالي ١٣,٨ مليار سنة، خلق من جسيمات متناهية الصغر مثل الفوتونات والإلكترونات، في حالة كثافة عالية للغاية ودرجة حرارة هائلة، ازداد حجمه في البداية بسرعة عظيمة أدت إلى انخفاض حرارته مما سمح للجزيئات الأولية بالاندماج لتشكيل جسيمات مثل البروتونات والنيوترونات ثم أنوية ذرات بسيطة، وتشكل غيوم عملاقة من غازي الهيدروجين والهيليوم وقليل من الليثيوم ثم التحام هذه السحب الغازية لتشكيل النجوم والمجرات.
في سنة ١٩٦٤، أصبحت نظرية الانفجار العظيم أفضل نموذج لأصل الكون وتطوره، ويرى مناصرو فكرة الإعجاز العلمي للقرآن بأن نظرية الانفجار العظيم تتفق مع عدد من آيات القرآن منها هذه الآية: (أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...)[١١٧].
اعتراض: أولاً لماذا تؤخذ الأرض كشيء أساسي في مقابل السماوات رغم أنها جزء صغير جداً من الكون العظيم والذي سمته الآية بالسماوات، وثانياً لا تزال الأرض جزءاً لم تنفصل من السماوات فما معنى الفتق.
الجواب: الموضوع الأساسي في الآية هي الأرض باعتبارها مسكن الإنسان وهو المخاطب في القرآن، حيث يريد تعالى أن يبين له عظمة الخلق وأن الأرض التي يعيش عليها الإنسان كانت ذات يوم لاصقة بمجموعةٍ هائلة ولم تكن الحياة ممكنة آنذاك، وأما اليوم فالأرض لها كيانٌ مستقل لم يكن لها ذلك قبل الفتق، ولذا نجد في تتمة الآية يقول تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ) حيث يشير الى أمر هام أوجده الله في الأرض وهو الماء الذي لولاه لما عاش الإنسان ولا الكائنات الحية كلها.

٢. التوسع المستمر للسماء: بدأ الجدل حول توسع الكون تزامنا مع ظهور نظرية الانفجار العظيم سنة ١٩٢٧، وفي عام ١٩٢٩ برهن إدوين هابل أن الكون في توسع، أي أن المجرات البعيدة تبتعد عن بعضها البعض بسرعة تتناسب مع مسافاتها عن مجرتنا، فنظريتا الانفجار العظيم والنسبية العامة ساهمتا في اكتشاف ظاهرة توسع الكون، وهو ما يتوافق مع نص الآية: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)[١١٨].
تعليق: لا برهان هابل أمرٌ محتوم ولا كلمة "مُوسِعُونَ" لها دلالة مؤكدة، ومع ذلك لا يمكن الإغماض عنهما.

٣. مرور الكون بمرحلة الدخان: قلنا في الموضوع الأول (نشأة الكون) أنه بعد تشكل غيوم من الهيدروجين والهيليوم والليثيوم التحمت هذه السحب الغازية لتشكل النجوم والمجرات، وأن الآية التالية تعبر عن تلك

---

[١١٧] الأنبياء:٣٠.
[١١٨] الذاريات:٤٧.

المرحلة الغازية بمرحلة الدخان: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[١١٩]. والتعليق المذكور في الموضوع الثاني (توسع السماء) قائمٌ هنا أيضا بشقيه، فلا شيء يؤكد صدق تطبيق الآية او عدمه.

٤. النجم الطارق: النجوم النابضة pulsating star تنتج عن انفجارات النجوم وتبث كميات هائلة من الإشعاعات التي تعتبر الأشد لمعاناً وهي تعمل مثل المطرقة التي تدق. ويؤكد الباحث أن الضوء الصادر عن مثل هذه الانفجارات عظيم جداً فقد بث هذا النجم خلال عشر ثوان ما تبثه الشمس خلال ١٥٠٠٠٠ سنة من الضوء. ويُعتقد أن هذه النجوم العظيمة هي التي أقسم الله تعالى بها فقال: (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ * النَّجْمُ الثَّاقِبُ)[١٢٠]. والتعليق السابق جارٍ هنا أيضاً، والشك في مكانه ايجاباً وسلباً.

٥. مواقع النجوم في الفيزياء الفلكية: يظن الناظر الى السماء أن النجوم قريبة، إلا أن علم الفيزياء الفلكية يبين ان الأبعاد بين النجوم ومواقعها كبيرة جداً لا يتخيلها عقل بشر فتصل أحيانا الى ملايين السنين الضوئية، وهذه النجوم قد خرج منها ضوءها قبل فترة طويلة، وما نراه في الحقيقة هو مواقعها التي غادرتها في غابر الأزمان، وهذه الحقيقة بقيت مجهولة حتى مطلع القرن العشرين، وهي كما قالت الآية: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)[١٢١]. فهل تشير الآية الى هذا الأمر، لا يمكننا أن نجيب بنعم او لا.

٦. جريان الشمس: لقد اعتقد العلماء في ما مضى أن الشمس هي مركز الكون وأنها ثابتة في حجمها وكتلتها ومكانها، وأن كل شيء يتحرك حولها، ولكن الشمس تجري وتتحرك بلا شك، ويبدو أن الآية التالية تشير الى ذلك: (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)[١٢٢].

٧. الثقوب السوداء: هي موجودات سماويةٌ عظيمة تدور بسرعةٍ هائلة، والثقوب السوداء لها جاذبيةٌ قويةٌ جداً بحيث لا يفلت منها حتى الضوء، ولعدم نفوذ أي ضوءٍ منها لا يمكن مشاهدتها.
يقول تعالى: (فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ)[١٢٣]، كلمة «الخنّس» تعني الشيء المستور الذي لا يمكن رؤيته. وكلمة «الجوار» تعني أنها تسير بسرعة كبيرة، وتطلق «الكنّس» على الأشياء التي تكنس، وهذا هو ما أخبرنا به العلماء عن الثقوب السوداء، ويقولون ان جاذبية الثقب الأسود مرتفعةٌ جداً بحيث أنه يبلع كل شيءٍ يقترب منه.

٨. السراج والنور: يسمي القرآن الشمس سراجاً وهو المصباح الذي ينير بنفسه، ويسمي القمر نوراً وهو مجرد الضوء، مما يدل على أن القائل كان يعلم أن القمر ليس مولداً للضوء.
(وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا)[١٢٤].
(تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا)[١٢٥].

---

[١١٩] فصلت:١١.
[١٢٠] الطارق:١-٣.
[١٢١] الواقعة:٧٥-٧٦.
[١٢٢] يس:٣٨.
[١٢٣] التكوير:١٥-١٦.
[١٢٤] نوح:١٦.
[١٢٥] الفرقان:٦١.

(قال هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا)[١٢٦].

ثالثاً. بعض ما ذكروه من الإعجاز العلمي للقرآن في الطبيعة على الأرض:

١. انخفاض نسبة الأكسجين عند الصعود إلى الأعلى نحو السماء:

بعد تمكن الإنسان الطيران بوسائل النقل الحديثة عرف أنه كلما ارتفع إلى الأعلى في الجو قل الأوكسيجين والضغط الجوي، مما يسبب ضيقاً شديداً في الصدور وصعوبة في التنفس، وذلك ما نطقت به الآية: (فَمَن يُرِدِ اللهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)[١٢٧].

٢. الظلمات المتعددة في أعماق البحار السحيقة والأمواج التي تغشاها:

كشفت العلوم الحديثة وجود ظلمات شديدة في قاع البحار العميقة، حتى إن المخلوقات الحية تعيش في هذه الظلمات بلا أدوات بصرية وإنما تعيش مستخدمة حواسها الأخرى، ولا توجد هذه الظلمات الحالكة في ماء البحر الذي يحيط بالجزيرة العربية وإنما اكتشفوها في المحيطات البعيدة عنها، كما اكتشف العلماء بواسطة الأقمار الصناعية موجاً بحرياً داخلياً يغشى البحر وهو أطول وأعرض من الموج السطحي، والآية القرآنية تقول: (أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ)[١٢٨]، فتكونت هذه الظلمات نتيجة البحر العميق اللجي أولاً، ثم الموج الداخلي الذي يعكس أشعة ضوء الشمس فلا يسمح لها بالنفاذ إلى الأسفل ثانياً، والموج السطحي ثالثاً الذي يعكس جزءاً من الأشعة، والسحاب الذي يحجب كثيراً من أشعة الشمس فلا يسمح لها بالنفاذ إلى الأسفل رابعاً، فهي ظلمات بعضها فوق بعض.

رابعاً. بعض ما ذكروه من الإعجاز العلمي للقرآن في الحياة على الأرض:

١. الماء والحياة:

إن الماء له دور أساسي لوجود الحياة على الأرض، ولا يوجد سائل في الأرض يصلح أن يكون وسطاً صالحاً للتفاعلات الحيوية في جسم الأحياء غير الماء، كما أن الجزء الأكبر من جسم كل كائن حي نباتاً كان او حيواناً يتكون من الماء بما في ذلك جسم الإنسان، والآية التالية تشير الى هذه الحقيقة: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[١٢٩].

٢. العنكبوت:

ورد بالقرآن قوله: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)[١٣٠].

---

[١٢٦] يونس:٥.
[١٢٧] الأنعام:١٢٥.
[١٢٨] النور:٤٠.
[١٢٩] الأنبياء:٣٠.
[١٣٠] العنكبوت:٤١.

إن لفظ العنكبوت مذكر في اللغة، ولكن الآية تعامله معاملة المؤنث ولم يُعلم سبب ذلك من قبل، ولكن العلم الحديث اكتشف أن التي تقوم ببناء البيت هي أنثى العنكبوت فقط من خلال مغزل خاص موجود في نهاية بطنها ولا يوجد مثله عند الذكر. وأيضا شبه الله الذين يتخذون أولياء غير الله ببيت العنكبوت، وقد كشف العلم مؤخرا سر ذلك التشبيه، وهو أن بيت العنكبوت هو الأبعد عن صفة البيت بما فيه من أمان وسكينة، فالعنكبوت الأنثى تبني البيت وتغزل خيوطه وهي الحاكمة فيه وتقتل الذكر بعد أن يلقحها وتأكله، ولهذا يعمد الذكر إلي الفرار دون عودة بعد أن يلقح، والأبناء يأكل بعضهم بعضا بعد الخروج من البيض، وتغزل أنثى العنكبوت بيتها ليكون فخاً وكميناً ومقتلاً للحشرات، وكل من يدخل البيت من زوار وضيوف يُقتل ويُلتهم، فهو أوهن البيوت لمن يحاول أن يتخذ منه ملجأ.

٣. تحريم لحم الخنزير:

لقد حرم القرآن لحم الخنزير، ونفذها المؤمنون امتثالاً لأمره تعالى دون أن يناقشوا علة التحريم، وقد وجد العلماء في عصرنا الحاضر من الأدلة العلمية على وجود الأمراض في لحوم الخنازير ما يكفي ليوصوا بعدم تناوله أو الإقلال منه، ولا فائدة من تربية الخنزير في مكان نظيف لأن لحمه يحتوي على مواد معقدة تضر الدماغ حتى لو كان نظيفاً، قال تعالى: (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ)[١٣١].

السبب في تحريم أكل لحم الخنزير:

١ – الخنزير مخلوق غير نظيف يتغذي على القاذورات والفضالات والديدان وبقايا الحيوانات والحشرات وأي شيء يجده يأكله، لذا فهو سبب في نقل الأمراض.

٢ – لحم الخنزير مليء بالكولسترول ومشبع بالدهون الضارة حيث أن نسبة الدهون الموجودة في الخنازير تعتبر ضعف النسبة الموجودة في اللحم البقري.

٣ – اللحم البقري وغيره من المواشي يستغرق الإنسان في هضمه من ٨ الى ٩ ساعات فالسموم الموجودة بها تمتص ببطء داخل جسم الإنسان، ولكن لحم الخنزير يمتصه الجسم في ٤ ساعات مما يعني تعرض الجسم لكمية أكبر من السموم.

٤ – الغدد العرقية في الخنزير قليلة جداً فالخنازير تكاد لا تعرق مثل باقي الحيوانات والعرق من أهم وسائل طرد السموم من الجسم، ومع منع العرق من الخروج تترسب السموم بنسبة أكبر في لحم الخنزير.

٥ – لحم الخنزير يحتوي على نسبة عالية من الطفيليات والديدان والتي قد لا يتم القضاء عليها في درجة غليان اللحم العادية.

٤. الرياح اللواقح: اللِّقاحُ: اسم ماء الفحل، فاللاقح هو الذكر انساناً كان او حيواناً او نباتاً، ولكن ما علاقة ذلك بالرياح حتى يسمي القرآن الرياح لواقح، الظاهر أن القرآن شبه التزاوج في ذرات جميع العالم من حيث وجود الشحنات الموجبة والسالبة فيها، شبهها بوجود نوعين من الكائنات الحية وهما الذكر والأنثى، كما شبه تفريغ الشحنات في السحاب وحدوث البرق وإيجاد المطر بعملية التلقيح بين الجنسين في الأحياء للتكاثر.
(قال تعالى: وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)[١٣٢].

خامساً. الإحصاء في القرآن:

---

[١٣١] البقرة:١٧٣.
[١٣٢] الحجر:٢٢.

كان العرب قبل الاسلام جهلاء حتى في العدّ، مثلا إذا اراد الراعي أن يأخذ قطيعه الى المرعى يأتي بوعاءين أحدهما مليء بالحصى والآخر فارغ، وكلما خرج أحد الأغنام من الحظيرة أخذ الراعي حصاةً من الوعاء المليء ورماها في الوعاء الآخر، وعند العودة من المرعى يعيد الحصى مع دخول الأغنام، فإذا ظلت حصاةٌ أدرك الراعي أن أحد الأغنام لم يعد، ولذا اشتقت كلمة (الإحصاء) بمعنى العدّ من (الحصاة)، وقد ذكر هذا الأمر في الأدب العربى ايضاً، أنظر كيف يفخر الشاعر بقومه:

الأكثرون إذا يُعدُّ حصاهمُ والأكرمون إذا يُعدُّ الأولُ

فكيف ياترى يمكن أن يخرج من بين هؤلاء الجهلاء كتابٌ يذكر مسائل حسابية أصعب من العدّ بكثير، فمجرد ذكر معلومات حسابية في زمن الجاهلية أمر يشبه المستحيل، وإليك بعض الأمثلة:

١. ايام السنة: كان العرب يرون أن السنة تعادل ٣٦٠ يوماً، لأنهم يظنون أن كل شهر قمري يعادل ٣٠ يوماً والسنة فيها ١٢ شهراً، فتصبح السنة ٣٦٠ يوماً، رغم أننا نعلم أن السنة القمرية (مثل الهجرية) أقل من ٣٦٠ يوم، والسنة الشمسية (مثل الميلادية) أكثر من ٣٦٠. والسبب في بروز هذا الخطأ أنهم لم يهتموا أبداً في التوقيت بدقة لتولّد الهلال اول الشهر القمري او محاق القمر في نهاية الشهر ليقارنوا ذلك مع الشهر القادم فيعلموا أن بعض الأشهر ٢٩ يوماً، خصوصا أنهم لم يكونوا يشعرون بالحاجة الى تلك الدقة، فلا تهمهم الدقة في ايام الحج ولا يريدون الصيام في شهر رمضان.

واستمرت الحالة كما هي حتى نزل القرآن فقال: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)[١٣٣]، فعرف الناس أن من الواجب عليهم رؤية الهلال في بداية كل شهر ليعلموا مثلاً اليوم التاسع من ذى الحجة حيث تبدأ اعمال الحج، او متى يبدأ شهر رمضان او شهر شوال ليصوموا ويفطروا.

وقد شرح النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام هذه المسألة باعتبارهم المفسرين الأساسيين للقرآن الكريم، فمثلا يقول الإمام الصادق في روايةٍ: (صم لرؤية الهلال وأفطر لرؤيته)[١٣٤].

٢. منام أصحاب الكهف: بالنسبة الى مدة منام اصحاب الكهف يقول القرآن الكريم: (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا)[١٣٥]، كان نوم اصحاب الكهف ٣٠٠ سنة ميلادية أي ما يعادل ٣٠٩ سنة قمرية (كالسنة الهجرية)، ولكن القرآن لم يقل ٣٠٠ ولا ٣٠٩، بل ذكر ٣٠٠ سنة اولاً ثم أضاف ٩ سنين في الجملة التالية، فإذا كان يقول ٣٠٠ لقالوا لِمَ لم يقل ٣٠٩ لأن الخطاب في القرآن كان للعرب وهم يعرفون السنة القمرية، إما اذا ذكر ٣٠٩ لقالوا إن اصحاب الكهف كانت سنتهم ميلادية فكان الأجدر أن يقول ٣٠٠.

الفرق بين ٣٠٠ سنة ميلادية و ٣٠٩ سنة قمرية ثلاثة أشهر، وإليك حسابها:

٣٠٩ سنة قمرية* ٣٥٤ يوم = ١٠٩٣٨٦ يوم + ١٠٣ ايام تضاف للسنوات الكبيسة = ١٠٩٤٨٩ يوم.

٣٠٠ سنة شمسية* ٣٦٥ يوم = ١٠٩٥٠٠ يوم + ٧٥ يوما تضاف للسنوات الكبيسة = ١٠٩٥٧٥ يوم.

٣. الإرث: أنظر الى أحكام الإرث المعقدة، وكيف أنها قد تمت طبقاً لقواعد أساسية كما أرادها الحكيم الخبير، دون أن تختلط فيها الأمور فلا تزيد الحسبة ولا تنقص عن مجموع التركة، وكيف كان من الممكن لشخصٍ أميٍّ مثل النبي صلى الله عليه وآله وسط أمةٍ جاهلة أن يأتي بها، فهذه الأمة كانت قاصرة عن فهمها ناهيك عن الإتيان بها.

---

[١٣٣] البقرة:١٨٩.

[١٣٤] التهذيب ٤: ١٥٧ | ٤٣٦، والاستبصار ٢: ٦٣ | ٢٠٥.

[١٣٥] الكهف:٢٥.

قال تعالى: (يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ (١٢))[١٣٦].

التعبير في قوله تعالى (للذكر مثل حظ الانثيين) له إشعار بإبطال منع توريث النساء في الجاهلية، فكأنه جعل إرث الانثى مقررا معروفا وأخبر بأن للذكر مثله مرتين. والآن نحاول أن نبين كيفية الإرث المستخلصة من الآية الأولى (رقم١١) فقط، ونتأمل هل كان بإمكان العقلية الجاهلية أن تفهم كل هذا التعقيد، ناهيك عن بقية مسائل الإرث الموجودة في الآية التالية وفي آخر آية من سورة النساء، وكذلك في ما روي عن المعصومين عليهم السلام.

أولا. إن كان للمتوفي ولد فلكل من أبويه السدس والباقي للأولاد بالترتيب التالي:

١. إذا كان له أولاد من الذكور والاناث كان لكل ذكر سهمان ولكل انثى سهم، مهما كان عددهم.

٢. إن لم يكن له ذكور، فإِنْ كَانَتْ له بنتٌ وَاحِدَة فَلَهَا النِّصْف، وإن كن انثتين او اكثر فلهن ثلثا ما ترك.

ثانيا. إن لم يكن له ولد:

١. إذا انحصر الوراث في الأبوين فيتوزع الإرث بينهما على قاعدة (للذكر مثل حظ الانثيين)، أي الثلث للأم والثلثان للأب.

٢. إذا كان له إخوة، فالظاهر أن الأبوين يأخذان النصف على قاعدة (للذكر مثل حظ الانثيين)، أي السدس للأم والثلث للأب، ويتوزع الباقي على الإخوة على قاعدة (للذكر مثل حظ الانثيين) ايضاً.

٤. الإعجاز العددي: يحاول البعض أن يطرح إعجازاً عددياً للقرآن، والمقصود به أخذ بعض التكرارات والأرقام وأماكن الجمل أو الآيات والخروج بعملية حسابية معينة، ومع أن البعض قال الكثير في هذا المجال، بل ألفوا كتباً خاصةً فيه، إلا أن العديد يحذرون من التعويل على الاعجاز العددي كما هو الحال في الإعجاز العلمي، وذلك لأن الاعجاز العددي غير مبني على قواعد معينة، ويرفض الكثيرون ايضاً الاعتماد على (حساب الجُمّل) في اعطاء كل حرف رقماً للحصول الى نتائج خاصة.

ونذكر الآن بعض ما قيل في الإعجاز العددي:

١. كلمة يوم منفردة تكررت في القرآن ٣٦٥ مرة بعدد أيام السنة.

٢. كلمة شهر منفردة تكررت في القرآن ١٢ مرة بعدد أشهر السنة.

٣. كلمة (الملائكة) بمشتقاتها تكررت في القرآن ٨٨ مرة وكلمة (الشياطين) بمشتقاتها تكررت ٨٨ مرة.

٤. كلمة (الدنيا) تكررت في القرآن ١١٥ مرة، وكلمة (الآخرة) تكررت ١١٥ مرة.

٥. يتركز عنصر (الحديد) في مركز الأرض، وعدد سور القرآن ١١٤ ومركزها هو (١١٤ ÷ ٢ = ٥٧)، ورقم سورة الحديد في القرآن هو ٥٧.

---

[١٣٦] النساء: ١١-١٢.

٦. نسبة البحر والبر على الأرض: البحر يشكل من ٧١ الى ٧٢٪، والبر أو اليابسة من ٢٨ الى ٢٩٪ من مساحة الكرة الأرضية، وقد ذكر (البحر) منفردا في القرآن ٣٣ مرة وذكر البر واليابسة ١٣ مرة (البر ١٢ مرة + يبسا ١ مرة)، فالمجموع: ١٣+٣٣=٤٦ مرة.
نسبة البحر إلى المجموع الكلي في القرآن: (٪٧١,٧=٤٦÷٣٣).
نسبة البر إلى المجموع الكلي في القرآن: (٪٢٨,٣=٤٦÷١٣).

سادساً. جانب من الشبهات العلمية عن القرآن:
حاول بعض المعارضين للاسلام إلقاء شبهاتٍ علمية على القرآن، فزعموا أن في القرآن معلوماتٍ تتعارض مع التقدم العلمي الحديث، إلا أن الحقيقة ليست كذلك، فمن جهة نحن نعلن أن القرآن ليس كتاب فيزياءٍ او كيمياء او ما يشابههما، ولكننا متأكدون أن القرأن لن يخالف الحقيقة أبداً، وإليك الآن بعض تلك الشبهات والرد عليها.

١. خلق السماوات والأرض في ستة أيام: قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ... ﴾[١٣٧].
الشبهة: لا تتفق الآيات القرآنية التي تحدثت عن بداية الخلق مع النظريات العلمية الحديثة، ويلاحظ أن الكتب السماوية السابقة أيضاً ذكرت ذلك. يتحدث القرآن - والكتب السماوية - عن الفترة التي مرت بها عملية الخلق مقدّرة بالأيام، ولكن لا يمكن أن تُنسب إلى اليوم الأرضي لأن الأرض لم تكن قد خلقت بعد لتكون مقياساً زمنياً، فإذا اعتمدوا نظم القياس الحديثة والتي تم بواسطتها تقييم عمر الكون فسيلاحظون اختلافاً كبيراً لأن الكون قد استغرق أكثر من ١٣ مليار سنة حتى الآن.
الجواب: لا يحتاج الله تعالى الى مدة زمنية لخلق أي شيء وهو القائل: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١٣٨]، فالستة أيام ليست المدة اللازمة لصنع السماوات والأرض فهو عزوجل يخلقها بلمحة بصر، وإنما المقصود أنه تعالى عيّن لها ستة مراحل مختلفة حدثت بعضها وظلت الأخرى، فلعل أولى المراحل هي التكوين الأولي للطبيعة (اليوم الأول)، وهو ما احتمله علماء العصر أنه كان قبل الانفجار العظيم، ثم يأتي الانفجار – إن صح ما احتملوه – ليكون المرحلة الثانية (اليوم الثاني)، وقد تشير الآية التالية الى هذا الأمر: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[١٣٩]، ويحتمل أن نكون لازلنا في هذه المرحلة او أن استقرار الكون بمجراته وكراته هو المرحلة الثالثة (اليوم الثالث)، وتليها المرحلة التالية او اليوم التالي وهو انتهاء هذه الحياة الطبيعية للكون، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[١٤٠]، ولعل يوم القيامة هو اليوم الخامس او السادس، لاحظ أنه تعالى يسمي القيامة يوما مع أنها فترة طويلة، قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[١٤١].

---

[١٣٧] الأعراف:٥٤
[١٣٨] البقرة: ١١٧
[١٣٩] فصلت:٩
[١٤٠] الأنبياء:١٠٤
[١٤١] المعارج:٤

٢. الماء والشـــهب: قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـــتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُـــهُ عَلَى الْمَاءِ﴾[١٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ﴾[١٤٣].

وقال عزوجل: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً * وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً﴾[١٤٤]، ومثل ذلك في سورتي الصافات والحجر.

شبهتان:

الأولى: يبدو من الآية الأولى أن الماء كان قبل الخلق وهذا يناقض التفســـير العلمي لوجود الماء كمركب كيميائي نشأ بعد ملايين السنوات من بداية الانفجار.

الثانية: يبدو من الآيتين الثانية والثالثة أنّ النجوم جُعلت شُـهُباً تُرمى بها الشـياطين، إلا أننا نعلم أن الشُـهُب والنيازك تحدث إثر اصـطدام أحجارٍ من الفضـاء بالغلاف الغازي المحيط بالأرض، ولسـرعتها العالية جداً تحتك بشـدة بالهواء فتحترق ويمكن مشـاهدتها على شـكل نجوم وهّاجة، فما معنى تعبير القرآن عنها بأنها نجومٌ في السماء تُرجم بها الشياطين الصاعدة لاستراق السمع في السماء؟

الجواب: العرش واللوح والكرســـي، والقيامة والجنة والنار وما إلى ذلك هي أمور تتعلق بما وراء الطبيعة، وحيث أن الإنســان لم يشــاهد شــيئاً مما وراء الطبيعة فلم يختلق في لغاته ألفاظاً تدل على تلك المفاهيم، فإذا أراد القرآن او سائر الكتب السماوية التعبير عن تلك المفاهيم لزم تشبيهها بما يعرفه الإنسان ويسميه بأسامٍ في اللغة.

فلا نعيم الجنة مثل نعيم الدنيا ولا عذاب جهنم ونارها مثل نار الدنيا وعذابها، وليس العرش المذكور في الآية كرسـياً يجلس عليه ملك يسـمى الله، وليس هذا العرش موضـوعاً على الماء الذي نعرفه اي (H_2O)، هذه كلها أمور غيبية لا يمكن للعقل البشـري تصـورها، فيشـبهها الله تعالى في كتابه بأمور مادية ليقرب المعنى الى الإنسان.

قال العلاّمة الطباطبائي: إنّ هذه التعابير في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضـروبة ليُتصـوّر بها الأمور الخارجة عن محدودة الحسّ في صـور المحسـوسـات للتقريب إلى الأذهان، وهو القائل عزّ وجلّ: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاّ الْعَالِمُونَ﴾[١٤٥]، أي لا يتعقّلها ولا يعرف مغزاها إلاّ مَن عَرف أنها أمثال ظاهريّة ضُربت للتقريب محضاً.

وقال: وأمثال هذه التعابير كثيرة في القرآن كالحديث عن العرش والكرسي واللوح والكتاب وغيرها.

وقال: وعلى هذا، فيكون المُـــراد من السماء التي مَلأَتْها الملائكة: عالَماً ملكوتيّاً هو أعلى مرتبة من العالم المشهود، على مِثال اعتلاء السماء الدنيا من الأرض، والمُـــراد من اقتراب الشياطين إليها واستراق السمع والقذف بالشُـــهب: اقترابهم من عالم الملائكة لغرض الاطّلاع على أســـرار الملكوت، وثَمّ طردهم بما لا يَطيقون تَحمّلـه مِن قذائف النور، أو محـاولتهم لتلبيس الحقّ الظـاهر، وثَمّ دحرهم ليعودوا خـائبين[١٤٦]. ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[١٤٧].

---

[١٤٢] هود:٧

[١٤٣] الملك:٥

[١٤٤] الجن:٨-٩

[١٤٥] العنكبوت:٤٣

[١٤٦] تفسير الميزان، ج١٧، ص١٣٠، بتصرّفٍ يسير

[١٤٧] الأنبياء:١٨

وفي حديث الرضا عن أبيه الكاظم عن أبيه الصادق عليهم السلام في جواب مُساءَلة اليهود: انّ الجنّ كانوا يَسترقون السمعَ قَبل مَبعث النبيّ (صلّى الله عليه وآله) فمُنِعت مِن أوان رسالته بالرجوم وانقضاض النجوم وبُطلان (عمل) الكَهَنة والسحرة[١٤٨].

[٢٠]

٣. التحدث مع الحيوانات: قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا﴾[١٤٩].

الشبهة: ليس للحشرات ومنها النمل أصوات، وإنّما تتفاهم مع بعضها عن طريق إرسال الأمواج اللاسلكيّة، او عن طريق الشمّ، وهذا لا صلة له بالكلام المسموع، فكيف إذن سمع سليمان كلام النملة؟

الجواب: إنّ الحيوانات تتفاهم مع بعضها بطرق مختلفة وهذا ما يسميه القرآن بالمنطق، ومن هذه الطرق إيجاد أصوات[١٥٠] خاصة كما في الدوابّ والطيور، ومنها إرسال الأمواج كما في الحشرات، وقد عرف الإنسان بعض الشيء منها، والله تعالى قادرٌ على أنْ يُعلّم بعض ذلك لمن يشاء فهو الذي علّم سليمان النبيّ منطق الطير، قال تعالى نقلاً عن سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾[١٥١].

الإخبار عن الغيب

من وجوه الإعجاز الأخرى ما ذُكر عن الإخبار عن الغيب، وتأتي هذه الأخبار عما مضى وعن المستقبل.

اولاً. يختص الغيب بالله وحده:

١. هناك آيات عديدة تدل على أنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، مثلاً:
قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إلا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ[١٥٢].

٢. حتى الأنبياء لم يكونوا يعلمون الغيب من عند أنفسهم:
قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إلا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلا تَتَفَكَّرُونَ[١٥٣].
قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إلا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ[١٥٤].

٣. الجن ايضاً لا يعلم الغيب، فمثلاً كان الجن يعملون لسليمان عليه السلام، فتوفى سليمان متكأً على عصاه، فلم يسقط وظل الجن يعملون لأنهم يظنون أن سليمان لم يمت:

---

[١٤٨] بحار الأنوار، ج١٧، ص٢٢٦، عن قرب الإسناد للحميري، ص١٣٣
[١٤٩] النمل:١٨-١٩
[١٥٠] ص
[١٥١] النمل:١٦
[١٥٢] النمل:٦٥.
[١٥٣] الأنعام:٥٠.
[١٥٤] الأعراف:١٨٨.

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ[١٥٥].

ثانياً. القرآن يعتبر بعض اخبار الماضين غيباً: نذكر دليلين لاعتبار القرآن أخبار الماضين من الغيب:
الدليل الأول: أن الناس لم يكونوا يعلمون شيئاً عن اخبار الماضين البعيدين جداً عن زمنهم، فلم تكن هناك كتابة عنهم ولم يسمح علماء اهل الكتاب أن يعرف عامة الناس وحتى التابعين لهم أي شيءٍ من مضامين الكتب السماوية.
الدليل الثاني: كانت في تلك الأخبار معلومات لا يعلمها أحدٌ أبداً، وقد ظلت مجهولةً الى أن تم كشفها في زمننا المعاصر أي في قرن الثامن عشر الميلادي.
١. قصة مريم: ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ[١٥٦].

٢. قصة نوح: قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ[١٥٧].

ثالثا. الإخبار عن كشف جثمان فرعون بعد الغرق:
١. غرق فرعون: يقول تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ[١٥٨].
وجاء في الكتاب المقدس أي (التوراة والإنجيل) ايضاً أن الإسرائيليين عبروا الى اليابسة بسلام ونجوا، وأن الملك مع جميع مرافقيه غرقوا في البحر الأحمر بين جدارين من الماء عن اليمين والشمال (كتاب الخروج – الآيات ٢٣، ٢٨، و٢٩).
وقد أجرى طبيب فرنسي باحث يدعى موريس بوكاي بتحقيق جامعٍ في هذا المجال.

٢. مَن هو موريس بوكاي: ولد سنة ١٩٢٠ في فرنسا، وفي سنة ١٩٤٥ عمل في جامعة باريس الطبية والى جانب عمله كطبيب بدأ أبحاثه في مجال التوافق والخلاف بين الدين والعلم، وكانت له دراسات في مجالات الفلك، علم الأحياء، الجيولوجيا، علم النبات، وعلم الجنين.

٣. بوكاي والقرآن: تعلّم بوكاي في دراسته كمسيحي أن محمداً (ص) حصل على معلومات من التوراة والإنجيل فحرّف بعضها او غيرها، ليؤلف بذلك كتابه القران.
في سنة ١٩٧٠ قرّر بوكاي أن يتعلم اللغة العربية حتى يتمكن من دراسة القرآن دراسةً موضوعية. وبعد أن أتم بحثه في القرآن قال: «لم أكن اعتقد في ذلك الزمن أن هذا الكتاب هو كلام الله». إنه حصل على أكثر من

---

[١٥٥] سبأ:١٤.
[١٥٦] آل عمران:٤٤.
[١٥٧] هود:٤٨-٤٩.
[١٥٨] يونس:٩٠-٩١.

١٥٠ آيه في القرآن تحتوي على حقائق علمية، واستنتج أنه بناءً على التقدم العلمي والاكتشافات العديدة لا يمكن لرجلٍ عاش قبل ١٤٠٠ سنة أن يأتي بهذه المعلومات العلمية الدقيقة، وعليه فإن هذا الكلام يجب أن يكون كلام الله.
نشر بوكاى مجموعة تحقيقاته عن الحقايق العلمية في الكتب المقدسة في عدة مجلدات من كتابٍ سماه "الكتاب المقدس، القران، والعلم"، فكان هذا الكتاب حتى سنة ١٩٨٧ الأكثر مبيعاً في فرنسا.

٤. مَن هو فرعون موسى: يبدو أن كلمة فرعون في لغتهم كانت تعني الملك، إلا أن القرآن استعمل هذه الكلمة كاسم خاص (اسم علم) للفرعون المعاصر للنبي موسى عليه السلام. فالظاهر أن ملك مصر في زمن النبي يوسف عليه السلام ايضاً كان يسمى فرعوناً، ولكن القرآن سماه ملكاً، ويحتمل أن يكون الدليل على ذلك هو أن القرآن خصص كلمة فرعون لفرعون موسى بالذات، والاحتمال الأكبر أن فرعون موسى هو رمسيس الثاني او ابنه رامنبتاح.

٥. رمسيس الثاني وابنه:
(١) رمسيس الثاني: يحتمل أن يكون هذا هو زوج السيدة آسية بنت مزاحم التي التقطت التابوت الحاوي للنبي موسى من الماء ليتربى تحت كنفها. وتشير الأخبار التاريخية أن رمسيس الثاني كان من أعظم وأقوى فراعنة مصر، وقد حكم ٦٧ سنة ومات سنة ١٢١٢ قبل الميلاد في التسعين من عمره، وخلفه ابنه رامنبتاح.
(٢) رامنبتاح ابن رمسيس الثاني: هو الملك الرابع من السلالة التاسعة عشرة من الفراعنة، وكان في الستين من عمره تقريبا عندما اعتلى العرش، وحكم رامنبتاح ١٠ سنين، ويعدّ ملكاً ضعيفاً بالمقارنة بأبيه.

٦. حوادث سنة ١٩٧٦: طلبت حكومة فرنسا رسمياً من انور السادات رئيس جمهورية مصر آنذاك أن يسمح بنقل تابوت رمسيس الثاني الى فرنسا من أجل عمل بعض الأبحاث عليه. واستقبل رئيس جمهور فرنسا آنذاك (ميتران) مومياء فرعون في باريس استقبالاً رسمياً، وقبل نقل فرعون الى المكان المخصص ذهبت السيارة الحاملة للتابوت الى إحدى الساحات الكبيرة في باريس وطافت حول تلك الساحة التي تحوي في وسطها إحدى المسلات المصرية القديمة. واستمرت الأبحاث على جسد فرعون مدة ثمانية أشهر وتم الإعلان عن نتائج البحث سنة ١٩٧٧.

٧. المسلة: المسلة (Obelisk) رمز الشيطان، وهي على شكل برج حجري نحيف عمودي ذي أربعة جوانب وينتهي رأسه بهرم صغير، المسلات المصرية القديمة كانت كلها في مصر، وانتقلت منها الى أكبر مدن العالم وتم نصبها في أكبر الساحات. وفي منى قرب مكة المكرمة توجد ثلاثة أعمدة على هيئة المسلة بالضبط وتسمى الجمرات حيث يقوم الحجاج في أيام الحج برميها بالحجارة، ولكن الحكومة وضعت في السنوات الأخيرة حيطان ضخمة حول الجمرات بحجة أن العدد المتزايد للحجاج لا يمكنه رمي تلك الجمرات الصغيرة، ولابد للحجاج من رمي تلك الحيطان، وبذلك سلمت رموز الشيطان من الرجم.
إن طواف جسد فرعون حول المسلة يدل على أن حكام فرنسا يعبدون الشيطان، ووجود المسلة في أكبر ساحات المدن يشير الى أن عبادة الشيطان قد هيمنت على العالم أجمع، وحيث أن المسلات القديمة كلها من مصر ففيه دلالة على الأهمية البالغة للفراعنة في نشر وتوطيد عبادة الشيطان في العالم، ولعل السبب في الاهتمام الكبير الذي أولاه القرآن لفرعون موسى إنما هو للخطر العظيم لهذا الملك الطاغي، فهو بنشره لعبادة الشيطان أصبح رمزاً لمحاربة الله تعالى.

٨. الازدواجية: نحن لا نعلم إن كان فرعون موسى هو رمسيس الثاني او ابنه، وهذا نوعٌ من الازدواجية في معرفة الشخصيات القديمة. ولهذه الازدواجية أمثلةٌ عديدة، ولعل المصلحة تكمن في بقاء هذه الشكوك على ما هي عليها. ونذكر الآن مثالين للازدواجية، أحدهما عن الماضي والآخر عن المستقبل:

(١) ذوالقرنين: هو من الملوك المؤمنين، وقد أنجز إنجازات كبيرة طيبة، وقد ذكره القرآن أيضا، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا)[١٥٩]. وهناك احتمالان او أكثر في ذي القرنين، أحدهما أنه اسكندر المقدوني والآخر قورش ملك ايران القديم.

(٢) الخراسانى: إن الروايات التي تذكر علامات ظهور الإمام الحجة عليه السلام تشير الى عددٍ من الشخصيات البارزة قبيل الظهور، منها سيد حسيني يدعى (الخراسانى). وتقول الروايات أنه قبل ظهور الإمام سوف يهاجم العراق جيشٌ يقوده السفياني وهو رجلٌ من ألدّ أعداء اهل البيت عليهم السلام، ويهدف ذلك الجيش هدم العتبات المقدسة في النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، وأن سيداً حسينياً يدعى الخراساني سيتصدى لهم بجيشه ويطردهم من البلاد.

فلو فرضنا أننا اليوم في زمن قريب للظهور، وان ذلك الجيش المعادي هو داعش، وان اسم السفيانى إنما هو اسم رمزي يدل على ابي سفيان باعتباره رأس العداء لرسول الله صلى الله عليه وآله ولأهل بيته الأطهار، فلابد أن يكون الحشد الشعبى العراقي هو الجيش المدافع عن العتبات، وقد اجتمع أفراد الحشد الشعبى بفتوى من السيد السيستاني وتم تجهيزهم بواسطة الإيرانيين وبأمر من السيد الخامنهاى، وبناءً على ذلك يطرح هذا السؤال نفسه بأنه من هو هذا الخراساني؟ هل هو السيد السيستانى او السيد الخامنهاى وكلاهما سيدان حسينيان ومن اهالي خراسان.

٩. نشر الأكاذيب: نحن نواجه عدة مجموعات كلها تحاول تغيير الحقيقة او التعتيم عليها لمصالحها الخاصة:

(١) الملحدون: هم اعداء الدين، بل اكثرهم من عبدة الشيطان، ولذا يكرسون جهودهم من أجل العثور على أي خطأٍ في الكتب السماوية، وحيث أن التوراة والقرآن أخبرا عن غرق فرعون موسى لذا حاول الملحدون إبعاد واقعة الغرق عن أي فرعون يحتمل أن يكون فرعون موسى.

(٢) اليهود: هم قاسوا من الفراعنة آلاماً كثيرة ولذا يحاولون عرض الحقايق بالنحو الذي يحبونه، لا كما يقوله التاريخ.

(٣) اصحاب الأديان: ولم ينج أصحاب الأديان ايضاً من قول الباطل، وكأنهم لا يعلمون أنه لا يلزم لإثبات نبوة أي نبي أن نحصل على أخبار غيبية.

١٠. فرار موسى عليه السلام من مصر: جاء في الكتاب المقدس أن موسى قتل مصرياً ثم هرب من فرعون وسكن مدين[١٦٠].

وفي القرآن ايضاً يقول تعالى خطاباً للنبي موسى: وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى[١٦١].

---

[١٥٩] الكهف:٨٣.
[١٦٠] كتاب الخروج – الآية ١٥.
[١٦١] طه:٤٠.

١١. فرعونان: اذا لاحظنا الدواعي العديدة للكذب في التاريخ، لعرفنا أن الحصول على الحقيقة صعبٌ جداً ولكننا نحاول أن نذكر أقرب الاحتمالات الى الحقيقة وهو أنه يحتمل أن النبي موسى عليه السلام واجه فرعونين في حياته:
(١) رمسيس الثاني: وهو الفرعون الذي هرب منه موسى ولجأ الى مدين، لأن بوكاى كشف من بعض الطبعات القديمة للتوراة أن ملك مصر (رمسيس دوم) توفي في المدة التي هرب بها موسى من مصر[١٦٢].
ونتائج التحقيقات الفرنسية ايضاً تؤيد هذا الأمر، لأن التحقيقات تبين أن سبب موت رمسيس الثاني ليس الغرق.
(٢) رامنبتاح: بوكاى يستنتج أن خليفة رمسيس أي رامنبتاح هو الفرعون الذي جاءه النبي موسى بعد عودته الى مصر وعرض عليه الإيمان ولم يقبل، وأخيراً هرب منه موسى مع بني إسرائيل، وطارده هذا الفرعون مع جيشه وغرقوا جميعاً.
عندما وجد علماء الآثار المقبرة الأصلية لرامنبتاح التي كان يجب أن يدفن فيها لم يعثروا على الجثة فيها فاستنتجوا أنه قد غرق وضاع جسده فلم يحنّطوه. إلا أنه تم العثور على مومیائه سنة ١٨٩٨ في معبدٍ بوادي الملوك، وبذلك فقد ذلك الاستنتاج مصداقيته.

١٢. الخبر الذي انفرد به القرآن: جاء في التوراة والإنجيل خبر غرق فرعون ولكن لم يأت فيهما أن جسده قد استخرج من الماء وتم تحنيطه، وأما القرآن فقد جاء فيه: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ[١٦٣].

١٣. بوكاى ومومياء فرعون: كتب بوكاي في سنة ١٩٨٧ كتابه "مومياء الفراعنة والتحقيقات الطبية الحديثة". وبيّن في كتابه أن مومياء رامنبتاح كان في أحسن حالةٍ ممكنة، وأكثر سلامةً من جميع المومياءات الأخرى، يقول بوكاي: بعد الفحص الميكروسكوبي على بعض أجزاء الجسم عرفنا أنه كان سالماً قبل التحنيط. ومع زيادة التحقيقات تبيّن لنا أن الدليل على سلامة الجسم هو وجود ملح البحر على جسم الفرعون. والأمر الذي يجلب الانتباه هو أن مقدار الملح لم يكن أكثر من اللازم بحيث يتسبب في اندثار الجسم، واستنتج بوكاى أن جسم الفرعون قد استخرج من الماء بسرعة وتم تحنيطه.

١٤. شبهات حول هذا الرأي: يمكن تفسير آيات القرآن التي تذكر قصص فرعون بحيث يتبين في كل حالة مَن هو المقصود من فرعون، هل هو الأب او الابن، ومع ذلك يصعب تبرير الأمر في مكانين في القرآن سنذكرهما الآن، وعلى كلٍّ فنحن لا نجزم بصدق هذه النظرية التي تقول بأن موسى عليه السلام واجه فرعونين لا واحداً وإن لم ننكرها، وإليك الشبهات القرآنية مع محاولة الرد عليها:
(١) شبهتان في سورة القصص، يقول تعالى: نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ

---

[١٦٢] كتاب الخروج – الآية ١١.
[١٦٣] يونس:٩٢.

آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩).

الشبهة الأولى: تذكر الآيات قصة موسى عليه السلام من بداية ولادته، فلو صحت نظرية الفرعونين فالمقصود من اسم فرعون هنا هو الأب، فهو الذي أمر بقتل الأبناء واستحياء النساء لأنه كان يحذر من أن يقضي موسى الموعود على ملكه كما تشير إليه الآية (٦) أعلاه، والشبهة هي أنه يقول تعالى في هذه الآية: (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ)، فإذا كان فرعون الأب هذا قد مات قبل بعثة النبي موسى فهو إذن لم ير ما كان يحذره من موسى لأنه مات فلم يواجه تحدي موسى بعد البعثة ولم يغرق في البحر.

الجواب: كان فرعون يحذر من أحد أبناء بني إسرائيل الذي سيولد وسيقضي على حكمه كما أخبره المتنبئون، ولكن لا يعني ذلك أنه سيقضي عليه شخصياً بل سيقضي على أسرته الحاكمة وإن كان بعد وفاته شخصياً، يقول تعالى في سورة الأعراف: وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) ... فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦).

يتبين من هذه الآيات أن آل فرعون قد غرقوا أجمعين بما فيهم خليفة فرعون، مما يعني أن الحكم قد انتقل الى أسرةٍ حاكمةٍ جديدة، وهذا ما كان يحذر منه فرعون.

ولكن الآية تقول (وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ...) مما يعني أن فرعون قد رأى ما يحذره بنفسه، والجواب أن فرعون كان قد شعر بأن موسى له أمرٌ خطير، يقول تعالى: (وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)[١٦٤]، فلعل فرعون قد احتمل بذلك احتمالا جاداً بأن موسى الذي ترعرع في كنفه أصبحت له مكانة في قومه وأصبح له شيعة يتبعونه، وقد يكون هو الموعود الذي سيفتك به، مما يعني أن الله قد أراه ما يحذره.

الشبهة الثانية: قول امرأة فرعون في الآية (٩): (أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا)، يدل على أنهما لم يكن لهما ولدٌ، مع أن ما ذكرناه عن خليفة فرعون الأب أنه ابن فرعون وكان أكبر من موسى، مما يعني أن فرعون كان له ولد حينما التقطوا موسى من البحر.

الجواب: لعل فرعون كان له ولدٌ من امرأة أخرى، وكانت امرأة فرعون المذكورة في الآية تقصد بتلك الجملة أن فرعون لم يكن له ولد منها.

(٢) شبهة في سورة الشعراء، يقول تعالى: فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩).

هذه الآية تدل أن الفرعون الذي أتاه موسى بالرسالة بعد عودته من مدين هو نفسه الذي ربّى موسى في صغره، وبالتالي فهو فرعون واحد قبل ذهاب موسى الى مدين وبعده.

الجواب: لم يقل بصيغة المفرد (أَلَمْ أُرَبِّكَ لديّ وَلِيدًا وَلَبِثْتَ عندي...) بل قال بصيغة الجمع ولذا يمكن أن يكون نفس ذلك الفرعون او ابنه، والظاهر أن الفرعون الابن كان أكبر من موسى لأننا ذكرنا أنه كان في الستين من عمره عند استلامه الحكم أي عندما كان موسى في مدين، ومن المستبعد أن يكون موسى قد بعث بعد الستين من عمره، وعليه فالفرعون الابن كان موجوداً عند التقاط موسى من الماء وقد رأى كل ما حدث، فمن الطبيعي أن يقول له: أنت كنت لدينا ونحن ربيناك.

---

[١٦٤] القصص:١٥.

١٥. النتيجة: رغم كل ما قلناه من تبرير فلا يزال الشك يحوم حول نظرية الفرعونين بكل جد، خصوصاً أن اسم فرعون في القرآن أتى دون الألف واللام مما يدل على أنه اعتبر علماً أي اسماً خاصاً لذلك الملك، وبناءً على ذلك نطرح أقوى ثلاثة احتمالات في مَن يكون فرعون موسى، وقبل ذلك يجدر الإشارة إلى أن جميع الاحتمالات تؤيد الآية القرآنية الكريمة (فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً)، وإليك الاحتمالات الثلاثة:
(١) رمسيس الثاني: من أقوى الاحتمالات أن رمسيس الثاني هو فرعون موسى من البداية الى النهاية، ولم يزعزع هذا الاحتمال إلا نتيجة التحقيق في فرنسا على مومياء هذا الملك حيث ادعوا فيها أنه لم يمت غرقاً، ولكن لا مانع من أن يكون هذا التحقيق غير موضوعي وحاوياً على بعض الأكاذيب خصوصاً ما يُذكر من أنهم حاولوا استبعاد موريس بوكاي لما رأوا منه ميوله الدينية، كما أن ما قيل من موت رمسيس عندما كان النبي موسى في مدين فهو ما اكتشفه بوكاي من نسخةٍ قديمة للتوراة ولا دليل على صحة نسخ التوراة.
(٢) الفرعونان: وهذا ما ذكرناه بالتفصيل، وهو رأي موريس بوكاي.
(٣) رامنبتاح: هذا الاحتمال وارد ايضاً وبكل قوة بأن رامنبتاح هو فرعون موسى لا غير، لأنه لم يكن مدفوناً في مكانه المخصص وإنما عثروا على جثته في مكانٍ آخر مما يؤكد أنه قد غرق ولم يقدروا على نقله الى مكانه الأصلي، وتحقيقات بوكاي على جثته تؤكد ايضاً على غرقه.

رابعاً. الإخبار عن بعض الحوادث في زمن البعثة او قريباً منها: وهي كثيرة نذكر بعضها.
١. سيغلب الروم بعد أن غُلبوا: قال تعالى (غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ)[١٦٥].
والمراد بالروم الروم الشرقية التي بلغت سلطتها الى الشام ومصر وكانت هناك معارك دائرة بين الفرس والروم للتسلط على هذه المناطق ولم ترد في الآية اشارة الى موضع الحرب والغلبة، ويقال ان خبر غلبة الفرس وصل الى مكة وابتهج المشركون به ولعله لكونهم أقرب الى دينهم لان الفرس ايضا كانوا مشركين بل ابعد من مشركي العرب عن الاديان السماوية.
ولعل العرب كانوا يتفألون بغلبة الفرس ويتوقعون بذلك غلبتهم في النهاية على المسلمين حيث كانوا يشاركون الروم في كونهم اهل كتاب ولا يبعد وجود نوازع سياسية ايضا تدعو المشركين الى التقارب مع الفرس.
ولكن الله تعالى أخبر المسلمين بهذه الآية ان الروم سيغلبون في بضع سنين وهذا من الاخبار بالغيب الذي تحقق في ذلك العهد ورآه المشركون بأم أعينهم ولم يؤمنوا، وفرح المؤمنون بذلك إمّا لأنّ الروم أقرب إليهم من الفرس وإمّا لتحقق الخبر الغيبي الذي نزل به الوحي، ونفس الإخبار بفرح المؤمنين ايضا خبر غيبي.

[٢٢]

٢. رؤيا رسول الله صلى الله عليه وآله: قال تعالى (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا)[١٦٦].

---

[١٦٥] الروم: ٢-٥
[١٦٦] الفتح: ٢٧

وذلك حيث رأى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في منامه أنه دخل المسجد الحرام مع أصحابه وطافوا بالبيت فأخبرهم بذلك ففرحوا واستبشروا ولما خرجوا الى مكة ووصلوا الحديبية ومنعهم المشركون من دخول الحرم دخل الشك في قلوب بعضهم.
فقيل ان المنافقين منهم نشروا بين الناس ما يثبّط عزائمهم ويثير فيهم الشكوك وسخروا من وعد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكذّبوه في الرؤيا التي أخبرهم بها. قال الآلوسي في روح المعاني (قال على طريق الاعتراض عبد الله بن أبي وعبد الله بن نفيل ورفاعة بن الحرث: والله ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام، فنزلت). فلما سألوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك قال لهم ما معناه: ما أخبرتكم انه يقع هذا العام.
ومهما كان فهذا من الاخبار الغيبية التي أخبر بها القرآن ووقع فعلا في العام التالي، وهناك سر في هذا التأخير وفي الاعلام عنه قبل عام وفي خروج الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في عام الحديبية. وهو ان يتبين المنافقون والذين في قلوبهم مرض والشاكّون في دينهم ولكن عامة الناس لم ينتبهوا الى الحكمة في ذلك.
وكان كما وعد الله تعالى حيث انه القى في قلوب المشركين ان يخرجوا من مكة لئلا يروا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وكان ذلك موجبا لأمان أكثر للمسلمين، وما اظن المشركين تفطنوا لذلك وانما خرجوا حقدا وحنقا ولكن الله تعالى بالغ امره.
والظاهر أن الوعد القريب في الآية إشارة الى فتح مكة، وهو إخبار آخر عن الغيب أيضاً.

٣. الغلبة في بدر: قال تعالى (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)[١٦٧].
فهذه الآية تدل على ان المسلمين سيغلبون في غزوة بدر والمراد بغير ذات الشوكة الغلبة على القافلة التجارية التي كانت مع ابي سفيان، فأرادوا ان يأخذوا منه اموال قريش في مقابل اموالهم التي غصبوها حين الهجرة ولكن الله تعالى اراد لهم الغلبة في الحرب مع ان ظاهر امرهم ما كان يقتضي ذلك فليس هذا من التفطن حسب قانون الاحتمالات وهكذا كان كما أخبر الله به.

٤. عدم الإتيان بمثل القرآن: قوله تعالى (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ)[١٦٨] حيث أخبر بأنهم لن يفعلوا اي لن يأتوا بمثل هذا القرآن، وقد مر ألفٌ وأربعمائة عامٍ ولم يأتوا مثل القرآن أبدا.

خامساً. الإخبار عن هامان وزير فرعون:
هامان هو شخصية وردت في النصوص القرآنية. كان وزير فرعون المعاصر للنبي موسى عليه السلام والمقرب الأول من حاشيته.

١. ذكره في القرآن: ورد ذكر اسم هامان في القرآن صراحة ستة مرات:

---

[١٦٧] الانفال:٧.
[١٦٨] البقرة:٢٣-٢٤.

قال تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ[١٦٩].
كما ورد اسمه ايضاً في (سورة العنكبوت: ٣٩)، (سورة القصص: ٦)، (سورة القصص: ٨)، (سورة غافر: ٢٤)، (سورة غافر: ٣٦).

٢. وتشير الآية ٣٨ من سورة القصص إلى ثلاث معجزات:
الأولى. الإشارة إلى أحد أعوان فرعون باسم هامان: ذكر موريس بوكاي في كتابه:
Maurice Bucaille, Moses and Pharaoh in the Bible, Qur'an and History, p. ١٩٢-١٩٣
ما نصه: يذكر القرآن الكريم شخصاً باسم هامان هو من حاشية فرعون، وقد طلب منه فرعون ساخراً من موسى أن يبني صرحاً عالياً يسمح له أن يبلغ الإله الذي يذكره موسى. وأردت أن أعرف إن كان هذا الاسم هو تحوير لاسم هيروغليفي من المحتمل أن يكون محفوظاً في وثائق العصر الفرعوني، ولم أكن لأرضى بأي إجابة عن ذلك إلا إذا كان مصدرها رجل يختص باللغة الهيروغليفية ويتقن اللغة العربية الفصحى بشكل جيد، فطرحت السؤال على عالم مصريات فرنسي يتوفر فيه الشرطان معاً. فكتبت أمامه الاسم العربي (هامان) ولم أخبره بحقيقة النص القرآني، واكتفيت بإخباره أن هذا النص يعود تاريخه بلا شك إلى القرن السابع الميلادي. كان جوابه أن هذا مستحيل، لأنه لا يمكن وجود نص يعود إلى القرن السابع الميلادي ويحتوي على اسم علم من اللغة الهيروغليفية وله جرس هيروغليفي، ولم يكن معروفاً في تلك الآونة، والسبب أن اللغة الهيروغليفية نسيت منذ زمن بعيد جداً. بيد أنه نصحني بمراجعة الكتاب التالي والبحث فيه: "معجم أسماء الأشخاص في المملكة الجديدة" للمؤلف هرمان رانك
(Dictionary of Personal names of the New kingdom, by Hermann Ranke).
لأرى إن كان هذا الاسم الهيروغليفي موجوداً فيه حقاً. وعند البحث وجدته مكتوباً في هذا المعجم، وفضلاً عن ذلك وجدت أن مهنته أيضا كانت كما عُبر عنها باللغة الألمانية (رئيس عمال المقالع)[١٧٠] ولكن دون إشارة إلى تاريخ الكتابة إلا أنها تعود إلى الإمبراطورية التي يقع فيها زمن موسى عليه السلام.

الثانية. استعمال الفراعنة للآجر في بناء الصروح: فتقول الآية القرآنية أن فرعون طلب من هامان أن يبني له من الطين المحروق اي الآجر او القرميد صرحاً اي قصراً عالياً، قال تعالى: (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ)، (سورة القصص، الآية ٣٨)، واستشكلوا في ذلك حيث كان الاعتقاد السائد عند المؤرخين أن الآجر لم يظهر في مصر القديمة قبل العصر الروماني، وظل هذا هو رأي المؤرخين إلى أن عثر عالم الآثار بتري على كمية من الآجر المحروق بنيت به قبور وأقيمت به بعضاً من أسس المنشآت، ترجع إلى عصور الفراعنة رمسيس الثاني ورامنبتاح وسيتي الثاني من الأسرة التاسعة عشر (١٣٠٨ - ١١٨٤ ق.م)، وكان عثوره عليها في موقع أثري غير بعيد من بي رعمسيس أو قنطير عاصمة فراعنة شرق الدلتا.
وعليه يعتبر ذلك من الإعجاز التاريخي للقرآن الكريم. حيث أن الآية الآنفة الذكر تدل على أن هامان كان رئيس عمال المقالع ايضاً. ولا نجد في عصر أي فرعون وزيرا بهذا الاسم إلا فرعون موسى أي أنها لو كانت مهنة لتكرر الاسم مراراً في عصور فراعنة آخرين كتكرار اسم فرعون.

---

[١٦٩] القصص:٣٨.
[١٧٠] مِقلَع: أداة تقلع النّباتات الصَّغيرة مع قليل من التُّراب لتُزرع في مكان آخر، والجمع: مقالع.

الثالثة. تأليه فرعون نفسه: في قوله (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)[١٧١]، والأبحاث الأثرية التي قامت حول الحضارة المصرية القديمة تؤكد أن الفراعنة منذ الأسرة الرابعة كانوا يصرحون ببنوتهم للإله رع الذي يمثل إله الشمس والذي كان يعبده قدماء المصريين، بل إن اسم رع دخل في ألقاب الفراعنة مثل (رع نب) أي الرب الذهبي، يقول عالم الآثار بريستد: لعل أوضح دليل على تأليه الفراعنة لأنفسهم هي أنشودة للشمس تردد فيها هوية الملك بإله الشمس، إن هذه الأنشودة التي حفظتها نصوص الأهرام تخاطب مصر، وتعد المزايا التي تتمتع بها مصر تحت حماية وسيادة إله الشمس، فعلى ذلك يُمنح فرعون مصر المزايا نفسها، ولذا تعاد الأنشودة بأكملها باستبدال اسم رع باسم فرعون في الأنشودة الأصلية.

[٢٣]
التناسق في القرآن

من وجوه التحدّي والاعجاز ومن وجوه كون القرآن آية إلهية، هو تناسقه وعدم الاختلاف فيه، قال تعالى (أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا)[١٧٢].

أولا. اختلاف ظروف الرسول: ان القران نزل في غضون ٢٣ سنة في ظروف متفاوتة جدا بالنسبة للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلو كان القرآن من انشائه صلى الله عليه وآله وسلم كان من الطبيعي ان تختلف محتوياته حسب اختلاف حالات المصنف، والتي نسردها كالتالي:

١. الضغوط الاجتماعية: في مكة كان تحت ضغط الكفار عليه وعلى اتباعه خصوصا في ايام المقاطعة في شعب ابي طالب عليه السلام، ثم في حال الهجرة وبعد الهجرة في حرب وسلم وفقر وغنى.

٢. مآسي الحروب: وفي الحرب ايضا كانت الظروف متفاوتة حيث كان يُغلب وتهزم جنوده في حرب ويَغلب في حرب، والمؤمنون يطيعونه في حرب ويعصونه في حرب.

٣. اختلاف احواله: ويتفاوت حاله بصورة طبيعية من حيث الصحة والمرض والفرح والاكتئاب وغير ذلك من شؤون الانسان، وهذه طبيعة البشر فهو بوجه عام تتطور افكاره ونفسياته وتختلف احواله طيلة السنين.

٤. عدم التسجيل: وهذا الامر يبدو أكثر غرابة إذا لوحظ ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ما كان يسجّل ولا يحتفظ بما تلاه على الناس في كتاب. والحفظ على ظهر القلب لا يمكن ان يمنع من النسيان فيتغير ما أنشأه حين إلقائه فضلا عن الاختلاف بين ما أنشأه في وقت سابق وما أنشأه في وقت لاحق.

٥. عدم الاختصاص بالرسول: يجب الانتباه إلى ان هذا الوجه من التحدي لا ينظر الى خصوصية الامية في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، بل هو تحدّ على جميع الفروض والاشخاص ولا يختصّ بحالة خاصة ولذلك قال تعالى (ولو كان من عند غير الله) لان كل انسان يتحول ويتطور، فعدم الاختلاف دليل واضح على انه من الله تعالى لا من الإنسان.

ثانياً. التناسق في القرآن:

---

[١٧١] القصص: ٣٨.
[١٧٢] النساء: ٨٢.

١. عدم الاختلاف في القرآن: لا نجد اي اختلاف في التعبير والمحتوى والدقة والفكر بين اوائل ما تلاه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في مكة واواخر ما تلاه في المدينة، ونحن نجد ان المؤلفين كثيرا ما ينسون ما ذكروه في موضع فيخالفونه في موضع اخر ولا يوجد مثل هذا الاختلاف في القرآن.
٢. التناسق بين الأحكام: يشتمل القرآن على احكام تشريعية متناسقة، هذه الاحكام تشمل مختلف الشؤون من العبادات والمعاملات، ومن البيع والنكاح والطلاق وحقوق الزوجين وحقوق الاولاد والقرض والربا والارث والحدود والديات والقصاص وسائر ما يحتاجه البشر في اجتماعه من قوانين.

ثالثاً. اعتراض المعاصرين: لا شك ان هناك من يعترض على كثير من القوانين الاسلامية حتى ما ورد في القرآن الكريم ويعتبرها غير صالحة للتطبيق في هذا العصر بل يعتبرها منافية لحقوق الانسان او للعدل الاجتماعي وللمساواة بين الرجل والمرأة بل المساواة بين كل الطبقات بل ان فيها ما يقتضي قبول الرق وهو عند البشر اليوم من أبشع ما رسمته البشرية من قانون.
ورغم أننا نرد على كل ذلك بجواب واحد وهو أن الحكم الالهي يجب ان يتبع ولا يحق لاحد ان يعترض عليه ولكن هذا لا يصحح القول بانه إعجاز او أنّه آية من آيات الله.
الجواب: انا لا نستدل على كونه آية او معجزة بكون هذه القوانين محقّقة للعدل الاجتماعي وما تتطلع اليه البشرية من المساواة المزعومة والرفاه والحرية الشخصية وما الى ذلك من الميول العامة التي بسببها تركت الدول الاسلامية قوانين الشرع كلها او اكثرها وتمسكت بالقانون الغربي.
وانما نستدل بقوة هذه القوانين وتناسقها وعدم التناقض والتنافي فيما بينها وموافقتها للأصول التي يقبلها الدين بالرغم من انها لم تشرع بواسطة مجموعة من نخبة المجتمع كما هو الحال في المجالس التشريعية بل ولا من عالم متخصص في القانون والتشريع بل جاء بها رجل امي لا يمكن ان يتمكن بذاته من المشاركة في التشريع فضلا عن الانفراد به لولا كونه رسولا مؤيَّدا من الله تعالى.

رابعاً. يبدو الاعجاز في الأحكام من ثلاث جهات:
١. عدم الاختلاف: ان هذه الاحكام نزلت في مناسبات وظروف متفاوتة كما ذكرنا، ولكن لم يحدث بينها اي تناقض او تضادّ.
٢. عدم الحاجة الى التغيير: انها قوية ومتناسبة مع كل التغيرات الى عصرنا هذا بعد القرون المتمادية، ولو أراد كل علماء ذلك العصر بل كل عصر ان يجتمعوا ويأتوا بقانون جامع لا يتغير لم يستطيعوا ونحن نجد الان ان نخبة المجتمعات البشرية يشكلون مجالس التشريع ويصدرون قوانين لا يمضي زمان طويل حتى يظهر ضعفها وموارد الخلل فيها بحيث لا يمكن تطبيقها ويحتاج المجتمع الى التغيير سواء في الدستور والقوانين الاساسية او غيرها.
٣. الرسول: انها أتت بواسطة رجل امي لم يقرأ ولم يكتب، وقد مر بظروف متقلبة طوال حياته كما ذكرنا.

خامساً. عدم التكامل في القرآن:
١. عدم التكامل في المعارف: لا نجد في القرآن اي تكامل في العلم والمعرفة ونحن نعلم ان العلماء والمثقفين يزدادون علما وثقافة وبذلك تتغير كتبهم ومقالاتهم وافكارهم بحيث لو يلاحظ المؤلف بعد عشرين سنة من النشر ما كتبه قبل عشرين سنة يخجل منه ويراه بعيدا عن الواقع بكثير.
٢. عدم التكامل في البلاغة: ومن الناحية البلاغية والادبية ايضا يتطور الانسان فلا شك ان شعر الشاعر في بداية نشأته ليس كأواخر إنشائه. وكلما نلاحظ القران لا نجد اختلافا ولا يعلم اي سورة تقدمت نزولا لعدم

الاختلاف ولو كان من انسان لكان الاختلاف واضحا فيه. ولذلك وصفه الله تعالى بقوله (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ..)[١٧٣]. وقال امير المؤمنين عليه السلام (وَيَنْطِقُ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ وَيَشْهَدُ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ)[١٧٤].

الإعجاز من جهة الرسول

اولاً. لم يكن للرسول اي مصدر للمعلومات: اتهموا الرسول صلى الله عليه وآله بأنه حصل على معلوماته من رحلتين تجاريتين له الى الشام، ولكن:

١. يلزم على الرحالة الذين يسافرون من أجل كسب المعلومات مثل المستشرقين، أن يبقوا في تلك الديار مدةً زمنية طويلة قد تربو على عدة سنوات للحصول على المعلومات التي يريدونها.

أما رحلات النبي صلى الله عليه وآله فكانت قصيرة جداً، ولعله في كل مرة لم يُقم بالشام أكثر من شهر، وكان الرسول في الرحلة الأولى فتىً يافعاً، أما في الرحلة الثانية فكان منهمكاً في العمل التجاري الموكول إليه بحيث لم تسمح له الفرصة للاتصال بمراكز المعلومات أي الكنائس ومعابد اليهود (الكنيست).

٢. الكنيسة المسيحية والكنيست اليهودي لم تكونا تمنحان المعلومات لأحد أبداً حتى لأتباعهم، ناهيك عن إعطائها لرجلٍ عربي، فكانوا يقولون أن العلم لا يُعطى إلا لأهله، وهم بالتأكيد لم يرون أهلية في عربي مجهول.

٣. إذن فالنبي صلى الله عليه وآله لم يكن لديه أي مصدر للمعلومات، ولم يتعلم أي شيءٍ عند أحد، ولم يُسمع عنه أي حديثٍ ادبي مثل الشعر والخطابة وما إلى ذلك، ولا أي حديثٍ علمي في أي موضوعٍ كان.

[٢٤]

ثانياً. المعلومات التي لا يمكن صدورها من رجل أمي: قلنا أن الذي أتى بالقرآن لم تكن له أي مصدر للمعلومات ولم يتعلم أبداً، فكيف يمكنه إذن أن يأتي بكتاب عبادي اخلاقي حقوقي تاريخي مثل القرآن، والذي يحتوي على معلومات كثيرة منها:

١. اخبار الأمم والأنبياء السابقين، والتي لم تكن موجودة إلا في الكتب الدينية وعند رجال الكنيسة والكنيست. وفي الأخبار المذكورة في القرآن لا يوجد أي حديثٍ قبيح في حق الأنبياء واولياء الله الصالحين، كما أن القرآن قد ذكر أخباراً لا توجد في الكتب السماوية القديمة وقد ثبت صحتها في هذا العصر مثل غرق فرعون ومومیائه، ووجود وزيرٍ قوي له يُدعى هامان.

٢. بعتبر القرآن منشوراً متكاملاً للحياة، فمما يشرحه ما يلي:

- علاقة الإنسان بالله تعالى، دون أن يذكر الأقوال القبيحة النابية والمشحونة بالكفر، التي تسربت الى الكتب السماوية الموجودة حالياً.
- علاقة الإنسان بأبيه وأمه، وزوجته (او زوجها)، وأولاده، وأقربائه، والمجتمع بأسره.
- كيفية التعامل الصحيح مع الأعداء، مثل الكفار والمنافقين والشيطان والحُسّاد والشامتين والشاتمين.

٣. رغم أن القرآن ليس كتاباً علمياً، ويتحدث على لسان عامة الناس حتى يستطيعوا فهمه، إلا أنه يحتوي على معلوماتٍ علميةٍ عديدة.

---

[١٧٣] الزمر: ٢٣

[١٧٤] نهج البلاغة الخطبة ١٣٣

ثالثاً. مثال لما لا يمكن صدوره من رجلٍ أمّي:

١. بيان معرفة الله: من الواضح ان التفكير البشري خصوصا في تلك الاعصار كان ساذجا جدا في معرفة الله، والى الآن نجد تلك السذاجة في الادراك البشري لمعرفة الله - مع قطع النظر عن الرد او القبول - حتى بين المؤمنين به تعالى، ونجد الكتب القديمة التي ليست المعرفة فيها مستقاة من القرآن تتخبط في التعريف به تعالى وبصفاته، حتى الكتب السماوية القديمة التي تدَخَّل الإنسانُ فيها.

٢. دقة الصورة القرآنية: لا نقصد بهذا الوجه الاستدلال بصحة ما ورد في الآيات ومطابقتها للواقع فانه امر نظري قد يرفضه البعض، وانما نقصد ان نفس الدقة الموجودة في هذه الآيات والصورة التي يبديها القرآن في معرفة الله تعالى لا يمكن ان يصدر من رجل امي بل حتى من رجل عالم متخصص بل من مجموعة من الحكماء في ذلك العصر بل في كل الاعصار.

والانصاف ان من يلاحظ هذه الوجوه لا يبقى له شك في ان هذا الكتاب من عند الله تعالى إذا لم يكن في قلبه مرض.

رابعاً. وجوه معرفة الله في القرآن:

١. توحيد الله: القرآن يهدي البشرية الى إله واحد لا إله غيره ولا ثاني له في اوصافه وربوبيته، لم يلد ولم يولد ولا يشاركه في حكمه أحد، فلا يتوهم الانسان انه وجد من شيء او يوجد مثله شيء، فهو الاول والاخر والظاهر والباطن.

٢. علمه: ويصفه القرآن بانه عالم الغيب والشهادة، فهوعالم بكل صغيرة وكبيرة لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وهُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وهو بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ.

٣. خلقه وإبداعه: وهو بديع السماوات والارض اي انه خلقها من لا شيء فلم يسبق خلقهما مادة او غيرها، قال تعالى: (قالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَالْأَرْض)[١٧٥]. والمراد بالفطر الابداع فاستدل به على وجوده تعالى والمراد بالسماوات والارض ما سوى الله اي الكون بأجمعه والاستدلال يبتني على ان الكون لم يسبقه شيء الا الله تعالى وهو حقيقة الوجود. والوجود لا يمكن ان ينعدم.

ومما ورد في الخلق ايضاً قوله تعالى: (إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)[١٧٦]، (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)[١٧٧]، وقوله: (الَّذِي أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى)[١٧٨]، وقوله: (إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون)[١٧٩].

٤. رحمته وتدبيره: وسعت رحمته كل شيء لأنه الرحمن الرحيم، ويدبر الامر من السماء الى الارض ما من شفيع الا من بعد اذنه لأنه رب العالمين وهو نور السماوات والارض وهو الصمد القاضي لكل الحاجات.

٥. استناد الأمور إليه: قال تعالى (وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا * مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ..)[١٨٠]، انظر كيف جمع بين قوله كل من عند الله وبين التفصيل بين الحسنة

---

[١٧٥] ابراهيم: ١٠
[١٧٦] ال عمران: ٥٩
[١٧٧] المؤمنون: ١٤
[١٧٨] طه: ٥٠
[١٧٩] يس: ٨٢
[١٨٠] النساء: ٧٨- ٧٩

والسيئة، للإشارة الى ان الحسنة فضل من الله لا يستحقها الانسان والسيئة انما تصيبه بسبب عمله ولكنها من الله أيضا، فلا مؤثر في الوجود غيره.
وفي استناد مشيئة الانسان الى مشيئته تعالى قال: (وَما تَشاءونَ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِين)[١٨١] وقال أيضا: (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعا)[١٨٢].
٦. صفاته الحسنى: يصف الله تعالى بالصفات الحسنى: (هُوَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)[١٨٣]، الى غير ذلك من الصفات الحسنى التي اشتمل عليها القرآن.
٧. عدم امكان رؤيته: قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ)[١٨٤]، وقال: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ)[١٨٥].
٨. قضاء الله وقدره: قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ..﴾[١٨٦] وقال: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[١٨٧].
وقد عرّفهما الإمام الرضا عليه السلام بقوله: القدر هو الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء، والقضاء هو الإبرام وإقامة العين.
عن ابن نُباتة، قال: إنَّ أمير المؤمنين عدل مِن عند حائط مائل إلى حائط آخر، فقيل له: يا أمير المؤمنين، تَفرُّ مِن قضاء الله؟ قال: أفرُّ مِن قضاء الله إلى قَدَر الله عَزَّ وجَلَّ.

[٢٥]

٩. رسوخ الايمان بالله في ضمير الانسان: قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[١٨٨].
ميزان الحكمة - محمدي ريشهرى (ج ١، ص ٧٨١):
(١) الإمام الباقر عليه السلام في قوله تعالى: (حنفاء لله...)، سئل ما الحنيفية؟ قال: هي الفطرة التي فطر الناس عليها، فطر الله الخلق على معرفته. (البحار:١٢/٢٧٩/٣).
(٢) رسول الله صلى الله عليه وآله: كل مولود يولد على الفطرة، وإنما أبواه يهودانه وينصرانه. (شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد:١١٤/٤).
(٣) عن رسول الله صلى الله عليه وآله: ...كل مولود يولد على الفطرة، فما يزال عليها حتى يعرب عنها لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه. (كنز العمال:١١٧٣٠).

---

[١٨١] التكوير: ٢٩
[١٨٢] يونس: ٩٩
[١٨٣] الحشر: ٢٣-٢٤
[١٨٤] الاعراف: ١٤٣
[١٨٥] الانعام: ١٠٣
[١٨٦] الانعام: ٢
[١٨٧] الرعد: ٨
[١٨٨] الروم: ٣٠

وقال تعالى أيضـا: (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْـهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِـهِمْ أَلَسْـتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ)[١٨٩].

بعض خصائص اعجاز القرآن

اولاً. الإعجاز الأدبى مُبهر: من المتوقع من القرآن باعتباره معجزةً أن يكون مثل سائر المعجزات مُبهراً ومُحيّراً، وهذا ما نلاحظه في فصاحة القرآن وبلاغته في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله.

ثانياً. يحتوي القرآن على نوعي الإعجاز معاً: قلنا أن الأنبياء أتوا بنوعين من الإعجاز، أحدهما لإثبات النبوة والآخر لأداء عمل او حل مشكلة، والقرآن يشمل كلا النوعين:
١. ببلاغته المعجزة وادبه الراقي، يثبت القرآن نبوة رسول الله صلى الله عليه وأله لمعاصريه.
٢. يستطيع القرآن بطرق أكثر تعقيداً أن يثبت النبوة للأقوام التالية، اي أن اعجاز القرآن يتطور مع الزمن.
٣. لم يكن لأداء عملٍ فحسب مثل نجاة بني اسرائيل من جيش فرعون بواسطة عصا النبي موسى، بل إن القرآن قام بأعظم عمل يمكن أن يؤديه كتاب، وهو إيجاد حضارة بشرية بأكملها.

ثالثاً. القرآن يوجد حضارةً بشرية: لحظ أن المقدرة الأدبية الجبارة للعرب، يقتصر على فترةٍ وجيزةٍ قبل ظهور الإسلام:
١. اي أنه عند ظهور الإسلام كان الأدب العربي في قمة مجده، ولكن بعد الإسلام وفتح البلاد الأخرى بواسطة المسلمين، اختلطت الشعوب غير العربية بالعرب (او من يسمون بالعجم)، ومع الأيام الزمن تبعثرت تلك الروح العربية الأصيلة.
٢. إلا أن الجوانب العلمية شاهدت تقدماً ملحوظاً، وبدأت تظهر تباشير حضارةٍ جديدة في المجتمع الإسلامي مبنية على القرآن، فإن تعاليم القرآن كانت ترشد المسلمين الى تلقّي العلوم المختلفة، وامتدت أيدي العرب الى الحضارات القديمة في الهند وايران ومصر واليونان، وبدأت حركة عظيمة لترجمة العلوم من الحضارات القديمة، وبذلك يعتبر القرآن الكتاب الوحيد الذي أسس حضارةً بشرية.

رابعاً. اعجاز القرآن لا ينتهي أبداً لأنه:
١. مجرد كلام، وهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يندثر ولا يضيع، ولا يمكن سرقته او إبادته.
٢. لا يتوقف عند النبي بنفسه، بل يستطيع كل شخص أن يحفظ القرآن ويعيد قراءته في أي مكان.
٣. مثال: تبليغ الإسلام بعد صلح الحديبية، وكذلك تبليغ الإسلام في كل العالم عن طريق عرض تعاليم القرآن.
٤. ليس مجرد خبر، فمثلا أخبرونا أن موسى عليه السلام كانت له عصا تظهر منها أعمالاً عجيبة خارقة للعادة، ولكن ذلك إنما هو مجرد خبر وصل إلينا، اما القرآن فهو بأيدينا دائماً نشعر بوجوده دون شك، رغم أن الضعف الأدبي للناس جعل الإعجاز الأدبي للقرآن باهت اللون.

خامساً. القرآن يخاطب جميع البشر مع اختلاف مستوياتهم الفكرية:
١. كل شخص يفهم من القرآن على قدر مستواه على عكس الكتب العلمية التي لا يعرفها الا من كان متخصصا وفي نفس مستوى الكتاب.

---

[١٨٩] الاعراف: ١٧٢

٢. مثال: قد يقرأ شخص سورة الكوثر بسذاجة فيفسرها بأن الله تعالى أعطى رسوله الخير الكثير بما أنزل عليه من الوحي ثم أمره بالصلاة والإنفاق، وقوّى شكيمته بأن من يقف في وجهه سيكون أبتر لا يصل الى هدفه.
٣. وقد يتأمل في سورة الكوثر مع صغرها متأملٌ فيرى فيها من اموراً كثيرة تثير الاهتمام، وسنذكر شيئاً منها في البند التالي.

سادساً. تأملٌ في سورة الكوثر:
١. كيفية العرض: فيها جانبان، جانب المنّ الإلهي حيث يقول: (انا اعطيناك)، والجانب التربوي: (لربك).
٢. الإخبار عن الغيب: في السورة خبران غيبيان، أحدهما قوله تعالى (اعطيناك الكوثر) حيث يخبر الرسول أن الله أعطاه الخير الكثير في ابنته فاطمة عليها السلام فلن يكون أبتر من ناحية الأبناء، والدليل على ذلك الخبر الغيبي التالي في نهاية السورة (إن شانئك هو الأبتر) مشيراً الى الذي عيّر الرسول بأنه أبتر لا ابن له، فأشار الله تعالى أنه هو الذي سيكون أبتر لا عقب له.
٣. كيفية شكر النعمة: وفيها جانبان أيضاً، الجانب الإلهي وهو قوله تعالى (فصل لربك)، والجانب الاجتماعي في قوله (وانحر) أي أطعم الطعام.
٤. التخيير في الشكر حسب مقدرة الشخص: ويتبين من الاطلاق في مقدار الصلاة، وكذلك الاطلاق في نوع النحر ومقداره.

****

المراجع:
١. الميزان في تفسير القرآن، العلامة الطباطبائي
٢. الهادي في تفسير القرآن، العلامة السيد مرتضى المُهري.
٣.الإلهيات، العلامة جعفر السبحاني، مؤسسة الامام الصادق عليه السلام، ج٣، ص٣٥١-٣٦٥.
٤. شبهات وردود حول القرآن الكريم، العلامة محمد هادي معرفت.
٥. أخذت مجموعة من المواضيع المفيدة من مختلف المواقع الإلكترونية، ولكثرتها واختلاط المعلومات المختلفة المقتبسة منها لا يسعني أن أذكر أسماءها، فأقدم اعتذاري للجميع.